المكتبة الإشتراكية

ف . كونستانتينوف

دور الأفكار التقدمية في تطوير المجتمع





دور الأفكار التقدمية
في تطوير المجتمع

المكتبة الاشتراكية

ف . كونستانتينوف

دور الأفكار التقدمية في تطوير المجتمع

دار دمشق
للطباعة والنشر

الطبعة الثانيـة
كانون ثاني ١٩٧١

١

موضوعية قوانين التطور الاجتماعي

لم يكن هنالك ، قبل ماركس وانجلس، علم اجتماع حقيقي. كان الاجتماعيون والمؤرخون البورجوازيون يعتبرون تاريخ المجتمع ركاماً من الصدف والاخطاء والهفوات . ولقد زعموا ان كل ما يجري في التاريخ ، على خلاف ما يجري في الطبيعة التي تسودها حتمية دقيقة والتي تخضع فيها الحوادث للقوانين وتتكرر حسب هذه القوانين، يتعلق بارادة الناس وادراكهم وغاياتهم ومراميهم وعقولهم. وظنوا ان ما يجري في التاريخ، على عكس ما يجري في الطبيعة، لا توجد له ولا يمكن ان توجد له قوانين موضوعية مستقلة عن إرادة الناس وادراكهم كل شيء في التاريخ يخضع لتصادم عدد لا يحصى من الصدف ، ويعدون من هذه الصدف اخطاء رجال الدولة وهفواتهم ، وأهواء المحظيين والمحظيات والملوك والملكات..

أما ماركس وانجلس ، واضعا علم قوانين التطور الاجتماعي الصحيح ، ألا وهو المادية التاريخية ، فقد اخضعا مفهوم التاريخ المثالي لنقد منهجي واثبتا ان التطور الاجتماعي يخضع لقوانين صارمة جداً وانه حركة تطور ضرورية .

وقد قدر للينين القيمة الثورية لهذا التحول الذي حققه ماركس وانجلس في مضمار العلوم الاجتماعية فكتب يقول :

« كما ان داروين وضع حداً للمفهوم الذي يرى ان انواع الحيوان والنبات لا يرتبط بعضها ببعض قط ، وانها عرضية

« خلقها الله » ثابتـــة مستقرة ، وكما انه كان أول من وضع قاعدة علمية صارمة لعلم الحياة ، حين اثبت تغـــير الأنواع وتسلسلها ، كذلك وضع ماركس حـداً للمفهوم الذي يرى ان المجتمع تجمع آلي من افراد يتعرض لكل نوع من انواع التبدل حسب اهواء السلطـــات (أو حسب اهواء المجتمع والحكومة وكلا الفرعين من الاهواء يرجع إلى أصل واحد) وان ذلك المجتمع يولد ويتحول وفق الصدفة ، لقد كان ماركس أول من وضع قاعدة علمية لعـلم الاجتماع حين اقام مفهوم التكوين الاقتصادي للمجتمع على اساس انه مجموعـة معينة من علاقات الانتاج، وحين قرر ان تطور هذه الأنواع من التكوين عملية من عمليات التاريخ الطبيعي[١] » .

وكما تخضع الصلات بين حوادث الطبيعة وتكييف بعضهـا بعضاً بصورة متبادلة ، لقوانين موضوعيـــة مستقلة عن إرادة الناس ، كذلك تجري الصلات بين حوادث الحياة الاجتماعيـــة وتكييف بعضها بعضـاً بصورة متبادلة وفق قوانين موضوعية مستقلة هي ايضاً، مثل قوانين الطبيعة ، عن إرادة الناس وادراكهم .

وخلافاً للقوانين التي تسنها الحكومات والتي تعبر عن إرادة هذه الطبقة الاجتماعية أو تلك، نجد قوانين الطبيعة وقوانين التطور الاجتماعي وعلى الخصوص قوانين المجتمع الاشتراكي الاقتصادية، لها

---

(١) لينين ، المؤلفات الكاملة في جزئـين : المجلد الاول ، القسم الاول ، دار النشر باللغات الأجنبية موسكو ١٩٥٣ ص ١٠٦ .

وجود موضوعي خارج عن ادراكنا ومستقل عن ارادتنا. وهذه القوانين هي انعكاس لحركات التطور الموضوعية التي تجري بصورة مستقلة عن إرادة الانسان كائناً من كان، والتي تحدد ادراك الناس. ان قوانين التطور الاجتماعي (سواء قوانين المجتمع الرأسمالي أم قوانين المجتمع الاشتراكي) هي تعبير عن الضرورة التاريخية .

وكل قانون علمي، سواء أكان من قوانين الطبيعة التي اكتشفتها العلوم الطبيعية أم من قوانين التطور الاجتماعي التي اكتشفتها العلوم الاجتماعية ، هو انعكاس العلاقات الضرورية بين الحوادث وحركات التطور التي تجري مستقلة عن إرادة الناس. فالقانون ، إنما هو علاقة تنبثق من طبيعة الأشياء، من سياق حركات التطور، أو من سياق الاحداث. قد تكون الصلة بين الحوادث وحركات التطور خارجية ، عرضية ، أو ضرورية ، داخلية ، اساسية ، عندما يولّد بالضرورة حادث من الحوادث حادثاً آخر ، كما يولد السبب النتيجة . مثال ذلك ان النزاعات التي تتطور بين القوى المنتجه وعلاقات الانتاج التي مضى زمانها ، في ظروف مجتمع تناحري ، تولد حتماً ثورة اجتماعية .

في وسع الناس اكتشاف قوانين الطبيعة وقوانين التطور الاجتماعي ومعرفتها واستخدامها على خير وجه في مصلحة المجتمع ولكن ليس في وسعهم تعديلها أو هدمها .

وخلافاً لقوانين الطبيعة ، نرى ان القوانين التي تضعها العلوم الاجتماعية وعلى الخصوص قوانين الاقتصاد السياسي لا يسري مفعولها أمداً طويلاً . وكلما تبدلت الشروط الاقتصادية فقدت

هذه القوانين قوتها وغادرت مسرح التاريخ لكي تخلي المكان لقوانين جديدة تنبثق على اساس علاقات اقتصادية جديدة.

ويعترف العلم الماركسي للمجتمع بوجود قوانين خاصة تصلح لنظام اجتماعي معين ولكنه لا ينكر مطلقاً وجود بعض القوانين الصالحة لجميع التكوينات (الأنظمة) الاجتماعية ان مختلف التكوينات الاجتماعية ، خلال تطورها ، ليست خاضعة فقط لقوانين خاصة بها ، بل هي خاضعة ايضاً لقوانين مشتركة بين جميع التكوينات وتتميز مختلف التكوينات الاجتماعية والاقتصادية بعضها عن بعض بالقوانين الخاصة التي تسيرها ، ولكنها ، في الوقت نفسه ، يرتبط بعضها ببعض بقوانين تطور مشتركة فيما بينها.

ومن القوانين المشتركة بين جميع التكوينات الاجتماعية والصالحة على الخصوص للمجتمع الاشتراكي ، يمكن أن نذكر القانون القائل ان الوجود الاجتماعي يحدد الادراك الاجتماعي. ان الافكار الاجتماعية والسياسية الحقوقية والفنية والفلسفية هي انعكاس للشروط المادية في الحياة الاجتماعية ، في الوجود الاجتماعي .

ومن اعم قوانين تطور المجتمع يمكن ان نذكر قانون التوافق الضروري بين علاقات الانتاج وصفة القوى المنتجة ومستواها .

فعلامَ يقوم هذا القانون ؟

خلافاً للمثالية التي تعتبر ان القوة الأساسية التي تحدد تطور المجتمع قائماً على الأفكار الاجتماعية والادراك الاجتماعي والسياسة ، تعتبر المادية التاريخية ان القوة الاساسية إنما هي أسلوب انتاج

الخيرات المادية . فبدون انتاج ، ليس ثمة مجتمع . فـإذا توقف الانتاج ، مات المجتمع .

من هنا تنبثق فكرة ماركسية جدّ معروفة ، وهي ان أسلوب انتاج الخيرات المادية يحـدد تركيب المجتمع وسيماءه ، وأفكاره وأوضاعه ومؤسساته .

ان اسلوب الانتاج لا يحدد تركيب المجتمع وسيماءه فحسب ، بل يشترط ايضـاً تحولاته وتطوراته . فكل تحول في اسلوب الانتاج يستدعي بالضرورة تحولاً في النظام الاجتماعي كله .

ومن هنا يبدو هذا السؤال : ما هو اسلوب الانتاج ؟ وعلامَ تتوقف تحولاته وما هي أسبابها الرئيسية ؟

في اسلوب الانتاج مظهران مرتبطان ارتباطاً لا تنفصم عراه : القوى المنتجة وعلاقات الانتاج . والماركسيون يفهمون بالقوى المنتجة ادوات الانتـــاج والناس الذين يعملون ويملكون بعض تجارب العمل وعاداته . والقوى المنتجة تعبر عن علاقات المجتمع الفعالة حيال الطبيعة . انها تعبر عن علاقات المجتمع بالطبيعة ، وتشهد على القدرة التي ظفر بها المجتمع على الطبيعة . وتطور القوى المنتجة ، وقبل كل شيء تطور ادوات الانتاج ، يشكل الاساس لتحولات اسلوب انتاج الخيرات المادية وتطورها

ولكن القوى المنتجة لا تشكل سوى مظهر من مظهري اسلوب الانتاج . أما المظهر الثاني ، الذي لا ينفصل عن الأول ، فهو العلاقات التي يقيمها الناس فيما بينهم أثناء عملية الانتاج .

وقد كتب ماركس يقول :

« في الانتاج ، لا يؤثر الناس في الطبيعة فقط ، بل يؤثر كذلك بعضهم في بعض . انهم لا ينتجون ما لم يتعاونوا في شكل معين وما لم يتبادلوا بينهم نشاطاتهم . وفي سبيل الانتاج ، يدخلون في علاقات وارتباطات معينة فيما بينهم ولا يتوطد تأثيرهم في الطبيعة : أي الانتاج ، إلا في حدود هذه العلاقات والارتباطات الاجتماعية[1] » .

وكما ان الناس لا يستطيعون انتاج الخيرات المادية دون ادوات الانتاج، كذلك لا يستطيعون الانتاج دون علاقات انتاج معينة ومستقلة عن إرادتهم. لقد كان الانسان دائماً كائناً اجتماعياً. وكل النجاحات التي احرزها في مضمار الحضارة أو الثقافة لم يحرزها إلا بفضل المجتمع وبالمجتمع . ولا توجد انسانية خارج المجتمع . وجوهر الانسان إنما هو مجموعة علاقاته الاجتماعية في زمن معين من تاريخه ، وقبل كل شيء مجموعة علاقات الانتاج .

وهكذا كان المظهر الثاني لأسلوب الانتاج هو علاقات الانتاج، أي العلاقات التي يعقدها الناس فيما بينهم خلال عملية انتاج الخيرات المادية . والذي يصف قبل كل شيء علاقات الانتاج هذه، إنما هو الشكل الذي تتخذه ملكية وسائل الانتاج، ووضع الفئات والطبقات وعلاقاتها الاجتماعية خلال عملية الانتاج وما ينتج عنهما من أشكال

(١) كارل ماركس « العمل المأجور ورأس المال » : المنشورات الاشتراكية الأممية باريس : ١٩٣١ – ص٣٩٠ .

توزع الثروات ، وكل أسلوب من أساليب الانتاج يمثل وحـدة هذين المظهرين اللذين حددنا، هما القوى المنتجة وعلاقات الانتاج، علاقات الناس بالطبيعة وعلاقات الناس فيما بينهم خلال عملية الانتاج.

ولكن ليس يكفي تعريف هذين المظهرين الضروريين للانتاج الاجتماعي ،لأسلوب الانتاج. فلأجل تحديد ما هو أساسي في قانون التوافق الضروري بين علاقات الانتاج وصفة القوى المنتجة ،لا بد من معرفة صفة العلاقات المتبادلة بين هذين المظهرين للانتاج الاجتماعي.

إن قانون التوافق الضروري يعبر عن الروابط الداخلية القائمة بين هذين المظهرين لأسلوب الانتاج . ولتحديد ما هو أساسي في قانون التوافق هذا ،من الضروري تعريف الصفات الخاصة بالقوى المنتجة وبعلاقات الانتاج .

ان الخاصة الأساسية الأولى للقوى المنتجة هي انها أكثر عناصر الانتاج حركة وثورة . انها لا تبقى أبداً مدة طويلة في نقطـة معينة . تلك هي خاصتها ، تلك هي طبيعتها .

ولكن القوى المنتجة ليس لها إلا هـذه الخاصة وحسب . **فالخاصة الثانية**،هي انها العنصر الأول الحاسم في أسلوب الانتاج. ان القوى المنتجة تحدد طبيعة علاقات الانتاج وصفتها. فكما تكون القوى المنتجة تكون علاقات الانتاج . ان الناس يدخلون دائماً في علاقات انتاجية توافق درجة تطور القوى المنتجة . ان الناس لا يستطيعون ان يختـاروا ، بصورة اعتباطية ، علاقات الانتاج القائمة فيما بينهم . بل تقوم فيما بينهم صلات يجب ان توافق **بالضرورة** طبيعة القوي المنتجة وصفتها ودرجة تطورها وحالتها . فما هي خصائص علاقات الانتاج ؟

ان القوى المنتجة هي التي تحدد علاقات الانتاج : تلك هي خاصتها **الأولى** . ولكن علاقات الانتاج تؤثر بدورها في تطور القوى المنتجة . وهذا العمل المكرور ، هذا العمل الذي يؤثر في القوى المنتجة قديتخذ صفة مزدوجة . فقد يسارع في تطور القوى المنتجة ، أو انه على العكس ، قد يؤخر هذا التطور ويعرقله .

تلك هي **الخاصة الثانية** لعلاقات الانتاج .

أما **الخاصة الثالثة** لعلاقات الانتاج فهي انها ، خلافاً للقوى المنتجة التي تسبق تطور علاقات الانتاج . يمكن أن تتأخر وهي تتأخر فعلاً عن تطور القوى المنتجة في جميع التكوينات الاجتماعية .

ان القوى المنتجة إنما هي المضمون ، وأما علاقات الانتاج فهي الشكل . والتبدلات التي تطرأ على الشكل تنبثق دائماً من تغيرات المضمون وتتأخر أحياناً عن تحولات المضمون . ان هذا القانون العام للعلاقات المتبادلة بين الشكل والمضمون يشمل العلاقات المتبادلة بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج .

ان تاريخ المجتمع هو تاريخ تطور القوى المنتجة والتحولات المتتابعة في أشكال علاقات الانتاج وأنواعها . وهذه التحولات المتتابعة في علاقات الانتاج مشروطة بتحولات صفة القوى المنتجة .

وقد رسم ستالين في مؤلفه عن «المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية » لوحة بيّن فيها تطور القوى المنتجة وعلاقات الانتاج وبيّن كيف ان تحولات علاقات الانتاج تتعلق بتحولات القوى المنتجة وتوافقها بالضرورة .

« لقد تغيرت وتطورت علاقات الانتاج بين الناس ،

علاقاتهم الاقتصادية ، وفق تغيرات القوى المنتجة في المجتمع وحسب تطورها خلال التاريخ[1] » .

في ظل المشاعية البدائية ، قامت علاقات الانتاج بين الناس على أساس الملكية الجماعية لوسائل الانتاج . وكان ذلك يوافق ، بالاجمال ، صفة القوى المنتجة في ذلك الزمن. فان ادوات العمل الأولى: الفأس الحجرية ثم القوس والسهام ، كانت تنفي إمكان النضال الفردي ضد قوى الطبيعة والوحوش المفترسة ، وكانت تتطلب عملاً مشتركاً . عملاً اجتماعياً . وهذا العمل المشترك خلق شروط ملكية جماعية لوسائل الانتاج والمنتوجات .

غير ان تطور القوى المنتجة ،والانتقال من الأدوات الحجرية إلى الأدوات المعدنية ، وظهور تربية المواشي والزراعة والمهن اليدوية ، وتوزيع العمل بين مختلف فروع الانتاج ،كل ذلك أدى إلى ولادة تبادل في المنتوجات بين الافراد والجماعات وإلى الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وإلى امكانية تراكم الثروات بين أيدي عدد معدود من الناس ، هم الاقلية ، وإلى تحول أكثرية المجتمع إلى عبيد . إذ ذاك قام نظام الرق . إذ ذاك ارتكز التوافق بين علاقات الانتاج وصفة القوى المنتجة على أساس آخر :

« ... هنا لم يعد ثمة عمل مشترك حر يقوم به جميع اعضاء المجتمع خلال عملية الانتاج . هنا ساد عمل العبيد القسري ، هؤلاء العبيد الذين يستثمرهم السادة العاطلون .

---

(١) ستالين: مسائل اللينينية: دار النشر باللغات الأجنبية موسكو ١٩٥١ ص ٨١١ .

ولهذا لم تبق ثمة ملكية مشتركة لوسائل الانتاج ولا للمنتوجات . فقد حلت محلها الملكية الخاصة[1] » .

لقد مرت الملكية الخاصة بتحولات عدة ، منذ شكلها في ظل نظام الرق والنظام الاقطاعي حتى شكلها في النظام الرأسمالي ، وذلك بالارتباط مع التحولات التي طرأت على صفة القوى المنتجة .

في ظل النظام الرأسمالي الذي خلف النظام الاقطاعي ، قامت علاقات الانتاج على اساس الملكية الخاصة من النوع الرأسمالي لوسائل الانتاج ، بينما زالت الملكية عن المنتجين ، عن العمال المأجورين . ولكن هؤلاء العمال ، المحرومين من وسائل الانتاج ، قد كونوا طبقة البروليتاريا ، ولكيلا يموتوا جوعاً ، اصبحوا مضطرين لبيع قوة عملهم للرأسماليين ولمعاناة نير استغلالهم .

لقد مضى على علاقات الانتاج الرأسمالية حين من الدهر كانت هذه العلاقات فيه موافقة لصفة القوى المنتجة . ومحل الاقتصاد الحرفي والمانيفاكتوره اللذين يعتمدان على العمل اليدوي ، قامت المصانع الكبرى والمعامل المجهزة بالآلات ، ومحل ملاك الأراضي الاقطاعي ، سيد الاقتصاد الفلاحي الذي يستخدم أدوات انتاج بدائية (المحراث الخشبي والمنجل ، والمحصد الخ . .) ، قام الاقتصاد الرأسمالي الذي يعتمد على تكنيك زراعي مجهز بالآلات ومنظم تنظيماً علمياً .

ان القوى المنتجة الجديدة قد اقتضت من العامل معرفة

---

(١) ستالين : مسائل اللينينية : دار النشر باللغات الأجنبية موسكو ١٩٥١ ص ٨١٢ .

إدارة الآلات. ولهذا يفضل الرأسماليون استخدام عمال متحررين من العبوديات الاقطاعية وحائزين على ثقافة كافية تؤهلهم لاستعمال الآلات استعمالاً صحيحاً .

ان علاقات الانتاج الرأسمالية قد توافقت في حينها موافقة تامة مع درجة تطور القوى المنتجة وفتحت آفاق واسعة أمام تطورها وحفزت تقدم الانتاج بشكل جد جشع ومنفر وقاس وغير انساني، ولكنه كان مع ذلك جباراً، وتقدمياً في بعض النواحي.

ان غاية الانتاج الرأسمالي كانت وما تزال الربح . جشع إلى الربح مسعور لا يشبع ، وتكديس الرساميل على الدوام ، ذلك هو حافز الانتاج الرأسمالي . ذلك ما دفع الرأسماليين إلى انماء الانتاج والتكنيك واساليبه ووسائله . والمنخس الذي ينخسهم إنما هو خوفهم من الخراب والمضاربة .

وقد استشهد ماركس في كتابه الرأسمال بمجلة كارترلي ريفيور « Quarterly Reviewer » فقال :

« ان الرأسمال ينفر من فقدان الربح أو من الربح الزهيد كما تنفر الطبيعة من الفراغ ان الرأسمال يبدي من الجرأة والاقدام حين يتعلق الأمر بربح يوافقه . فهو يرضى بكل شيء في سبيل عشرة بالماية من الربح المضمون ، وفي سبيل ٢٠ ./. يصبح شديد الحيوية ، وفي سبيل ٥٠ ./. يصبح مغامراً جريئاً ، وفي سبيل ١٠٠ ./. يدوس بالاقدام جميع القوانين البشرية . وفي سبيل ٣٠٠ ./. ، لا تبقى ثمة جريمة لا يكون مستعداً للمغامرة على ارتكابها ولو كلفه ذلك مجابهة

المشنقة »[1] .

ان علاقات الانتاج الرأسمالية ، لكونها توافقت مع القوى المنتجة وصفتها ونموها،قد ضمنت طوال قرن كامل تطوراً جباراً في القوى المنتجة ، وازدهاراً لم يكن بوسع كل الأجيال السابقة ان تحلم معاً بهما .

« ففي الزمن الذي تلا الثورة البورجوازية ، لما حطمت البورجوازية علاقات الانتاج الاقطاعية واقامت علاقات انتاج بورجوازية ، جاءت ، بلا ريب ، مراحل كانت فيها علاقات الانتاج البورجوازية متوافقة تماماً مع صفة القوى المنتجة ولولا ذلك ، لما استطاعت الرأسمالية أن تتطور بمثل تلك السرعة بعد الثورة البورجوازية »[2] .

ولكن علاقات الانتاج الرأسمالية التي كانت فيما مضى شكلاً من اشكال تطور القوى المنتجة ، قد تحولت منذ زمن بعيد فأصبحت عائقاً وحجر عثرة في طريق تطور القوى المنتجة . ولماذا ؟ لأنها لم تعد توافق تطور القوى المنتجة . فان هذه القوى قد تجاوزت نطاق علاقات الانتاج الرأسمالية ودخلت في معارضة واضحة ونزاع مع هذه العلاقات ، ان القوى المنتجة قد غدت اجتماعية ولكن الملكية ، ولكن التملك ظل خاصاً ، رأسمالياً ،

---

(١) كارل ماركس - رأس المال - نقد الاقتصاد السياسي - الكتاب الأول - تطور الانتاج الرأسمالي - المجلد ٣ - مكتب النشر - باريس ١٩٣٩ - ص ٢٢٢ .

(٢) ستالين - القضايا الاقتصادية للاشتراكية في الاتحاد السوفياتي . منشورات دار الفارابي - ص ٦٣ .

الأمر الذي يتعارض بصورة جذرية مع طبيعة القوى المنتجة :

إن الرأسماليين حين طوروا القوى المنتجة بنسب هائلة ، وحين حشدوا في المصانع والمعامل الواسعة ملايين الشغيلة المأجورين ، قد اعطوا للانتاج صفة اجتماعية . ولكن الرأسمالية نسفت بهذا العمل أساسها نفسه ، أي الملكية الخاصة ذات الشكل الرأسمالي . ذلك ان الصفة الاجتماعية لعملية الانتاج تتطلب الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج وللثروات المبتدعة.

ان الملكية الخاصة للرأسمالية لا تتوافق وصفة الانتاج الاجتماعية وهذا التناقض الأساسي في الرأسمالية يتجلى في آزمات فيض الانتاج (أو تزايد الانتاج) الدورية التي تؤدي إلى دمار القوى المنتجة والثروات المبتدعة أو إلى بطالة كثيفة ، وإلى المجاعة تحل بعشرات الملايين من الناس الذين يسقطون في مهاوي الشقاء لأنهم خلقوا الكثير من الثروات . ولقد وقعت الرأسمالية في شبكة تناقضات ليس لها حل .

« وهذا يعني ان علاقات الانتاج الرأسمالية لم تعد توافق حالة القوى المنتجة في المجتمع ، وانها وقعت في تناقضات معها لا يمكن حلها .

« وهذا يعني ان الرأسمالية حبلى بثورة مدعوة لاستبدال الملكية الرأسمالية الحالية لوسائل الانتاج بالملكية الاشتراكية[1] » .

وهذه الثورة حدثت في الاتحاد السوفياتي الذي توافق فيه علاقات الإنتاج صفة القوى المنتجة موافقة تامة .

وهذه الثورة تحققت ايضاً في بلدان الديموقراطية الشعبية التي

---

(١) ستالين مسائل اللينينية : دار النشر باللغات الأجنبية موسكو - ١٩٥١ - ص ٨١٥

نظمت فيها علاقات الانتاج في الصناعة وفق الصفة الحالية للقوى المنتجة والتي تعمل الآن على إقامة هذا التوافق في الزراعة عن طريق نظام التعاون والمزارع التعاونية .

ذلك ما ضمن للقوى المنتجة في معسكر الاشتراكية تطوراً سريعاً جباراً على نقيض ما يجري في معسكر الرأسمالية الذي تعيش فيه القوى المنتجة بعناء وتتعرض فيه احياناً للدمار .

عالمان متعارضان، معسكران يقفان جنباً إلى جنب ويناقض احدهما الآخر : معسكر الاشتراكية ومعسكر الرأسمالية . وهذان المعسكران يعرضان على الملأ وجود شكلين من التطور الاقتصادي: تطور جبار في القوة المنتجة في معسكر الاشتراكية وركود في معسكر الرأسمالية .

وقد عرض مالينكوف في تقريره في المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي كل مظاهر هذا التعارض بين خطي التطور . فمن ١٩٢٩ إلى ١٩٥١ زاد حجم الانتاج الصناعي ١٣ مرة في الاتحاد السوفياتي ، وفي الفترة نفسها ، ظل الانتاج الصناعي يدور في مكانه في معظم البلدان الرأسمالية . من الصحيح ان الانتاج الزراعي في الولايات المتحدة قد بلغ الضعفين بين ١٩٢٩ و ١٩٥١ . ولكن هذه الزيادة ناجمة عن انتاج الاسلحة خلال الحرب العالمية الثانية وخلال الحرب العدوانية اللصوصية التي شنتها الولايات المتحدة على كوريا، ناجمة عن اشاعة العسكرية في الاقتصاد ، أي انها ناجمة في الأساس عن انتاج وسائل الإبادة .

وما الذي يحدد تعارض هذين الخطين من التطور ؟ انـــه ليحدده فعل قانون التوافق الضروري بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج. ان مقتضيات هذا القانون غير مطبقة في البلدان الرأسمالية ولكن مفعول هذا القانون يسري في الاتحاد السوفياتي بحرية تامة.

وفي المجتمع البورجوازي، هذا التكوين الاقتصادي والاجتماعي التناحري، يرجع تأخر علاقات الانتاج إلى ان الطبقات الرجعية، التي تجد مصلحتها في الابقاء على علاقات الانتاج الرأسمالية، وعلى الاستثمار وعلى الملكية الرأسمالية، وعلى الأشكال الرأسمالية في توزيع الدخل القومي، تتكالب في الدفاع عن علاقات الانتاج هذه بكل ما تملك من وسائل ولا سيما باعتمادها آلة الدولة. ولهذا تتأخر علاقات الانتاج عن تحولات القوى المنتجة. وهذا مـا حدث في جميع الأنظمة الاجتماعية التناحرية.

من هنا ينشأ بالضرورة عدم توافق بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج، وتناقضات بينها وتناحرات تصبح امراً لا مفر منه في كل المجتمعات التي سبقت المجتمع الاشتراكي. وخلال التطور التاريخي الذى اجتازته جميع اساليب الانتاج السابقة للاشتراكية، كان تطور القوى المنتجة يدخل دائماً ضمن بعض الحدود، في نزاع مع علاقات الانتاج البائدة، وذلك أمر كان يفصم وحدة أسلوب الانتاج ويسبب الأزمات والاضطرابات والكوارث الاقتصادية والحروب والثورات الاجتماعية. وفي كل الأنظمة الاجتماعية السابقة للاشتراكية، كانت هذه التناقضات والنزاعات بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج حادثاً لا مفر منه ولا مناص، لا يتعلق مطلقاً بإرادة الناس أو

بادراكهم ، برغباتهم أو بسياستهم، وهو لا يتعلق كذلك بارادة الأفراد أو بادراكهم ولا بارادة الشعوب والطبقات أو بادراكها.

وفي المجتمع الاشتراكي ايضاً تتأخر علاقات الانتاج عن تطور القوى المنتجة لأن القوى المنتجة، في النظام الاشتراكي أيضاً، هي أشد عناصر الانتاج حركة وثورية. ومع ذلك فالتناقضات التي تظهر بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج لا يمكن لها أن تتحول إلى تناحر، ذلك لأن الحزب الشيوعي والحكومة السوفياتية يعرفان، بالاعتماد على قانون التوافق الضروري بين علاقات الانتاج وصفة القوى المنتجة ، كيف يكشفان، في الوقت المناسب، التناقضات الناشئة ، فيتخذان التدابير التي تسمح بالتغلب عليها عن طريق تكييف علاقات الانتاج وتطور القوى المنتجة .

وتأخر علاقات الانتاج عن تطور القوى المنتجة لا يمكن له ان يتسع اتساعاً كبيراً جداً. ذلك ان علاقات الانتاج لا بد لها، عاجلاً أو آجلاً ، ان تتناسق وتنسجم مع القوى المنتجة الجديد. وعندما ينفصم التوافق والوحدة بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج تنشب أزمة في الانتاج ويحدث دمار يلحق القوى المنتجة التي كانت قائمة آنذاك .

وهكذا نرى ان قانون التوافق الضروري بين علاقات الانتاج وصفة القوى المنتجة ودرجة تطورها وحالتها ، من حيث محتواه وجوهره ، قائم على أسس صلة وفعل متبادل ضروري يمكن ايجازه على النحو التالي :

١ — ان القوى المنتجة وحالتها وصفتها تحدد طبيعة علاقات

الانتاج وشكلها .

٢ — ان القوى المنتجة تتحول قبل كل شيء ، وبفعل هذا التحول وبالتوافق معه ، تتحول علاقات الانتاج بين الناس ،يعني صفة ملكية وسائل الانتاج ووضع مختلف الفئات الاجتماعية خلال عملية الانتاج ، وعلاقات بعضها ببعض ، وعلاقات التبادل وتوزيع الثروات .

٣ — عندما يكون هنالك توافق تام بين علاقات الانتاج وصفة القوى المنتجة وحالتها ،تتطور هذه القوى تطوراً حراً . وفقدان هذا الانسجام ،وولادة التناقضات والنزاعات ،في الانظمة التناحرية ، ـهذه التناقضات والنزاعات الناجمة عن كون القوى المنتجة هي أشد عناصر الانتاج حركة وثورة ، وعن كون علاقات الانتاج تتأخر عنها ، ـ يؤديان إلى الازمات وإلى انفصام عرى الوحدة في الانتاج وإلى ضرورة احلال علاقات جديدة توافق صفة القوى المنتجة الجديدة محل علاقات الانتاج البائدة .

إن إحدى خصائص فعل قانون التوافق الضروري بين علاقات الانتاج وصفة القوى المنتجة وغيره من القوانين الاقتصادية الموضوعية في النظام الاشتراكي ،هي ان هذه القوانين الاقتصادية الموضوعية في النظام الاشتراكي ، هي ان هذه القوانين تكف عن العمل بصورة عفوية على أساس انها قوى غريبة معادية للمجتمع . غير ان هذه القوانين تعمل في النظام البورجوازي بصورة عفوية وفي مثل هذا النظام يوافق وجود هذه القوانين الموضوعي عفوية عملها .

ولكن القوانين الاقتصادية في النظام الاشتراكي ، على الرغم

من أنها هي كذلك موضوعية، تكف عن قوى عفوية انتكون معادية للانسان والمجتمع . فبفضل معرفة قوانين التطـــور الاجتماعي الموضوعية، يعمل الحزب الشيوعي والسلطة السوفياتية والمجتمع الاشتراكي آخذين بعين الاعتبار هذه القوانين بدلاً من الاصطدام بها. ان المجتمع الاشتراكي يستطيع، بالاعتماد على معرفة القوانين الاقتصادية ، ان يوجّه تطوره الاقتصـادي والاجتماعي وفق منهاج يضمن له مصالحه وغاياته .

« يقولون ان القوانين الاقتصادية ذات صفة عفويـــة ، وان فعل هذه القوانين لا مرد له، وان المجتمع عاجز أمامها، هذا خطأ. هذا معناه تأليـه القوانين، هذا معناه الاستسلام إلى عبودية هذه القوانين. فلقد أقيم الدليـل على ان المجتمع غير عاجز أمام القوانين ، وان في وسعه ، عن طريق معرفة القوانين الاقتصادية وبالاستناد إليها ، ان يحد من دائـــرة فعلها، وان يستخدمها في مصلحة المجتمع وان « يروضها » ، مثلما يجري حيال قوى الطبيعة وقوانينها[1] » .

ان قوانين التطور الاجتماعي الموضوعية يسري مفعولهـــا بصورة عفوية إذا كانت غير معروفـة ، أو إذا كان المجتمع أو الطبقات الرجعية، رغم معرفة هذه القوانين واكتشافها، لاتحسب لها حسابها فتصطدم بها ، كما يحدث في النظام الرأسمالي .

ان سياســة الحزب الشيوعي والدولة الاشتراكية تقوم في

---

(١) ستالين: القضايا الاقتصادية للاشتراكية في الاتحاد السوفياتي-منشورات دار الفارابي ـ ص ـ ٩ .

المجتمع الاشتراكي على معرفة القوانين الاقتصادية. وسياسة الحزب الشيوعي والدولة السوفياتية قادرة على تنظيم البلاد وتوجيهها لأنها قائمة على تحليل عميق لقوانين مقتضيات تطور حياة المجتمع المادية وعلى الدراسة الدقيقة للحوادث التي تجري في اعماق حياة المجتمع الاشتراكي الاقتصادية، وعلى دراسة مبادرة الجماهير التاريخية، أي مبادرة عشرات الملايين من بناة المجتمع الجديد. ولهذا كان الحزب الشيوعي والسلطة السوفياتية، اللذان يعتمدان على معرفة قوانين تطور المجتمع الموضوعية، يستطيعان أن يتنبأا سلفاً تنبؤاً علمياً باتجاهات التطور اللاحق في الاقتصاد. هذه المعرفة لقوانين التطور الاجتماعي، وهذا التنبؤ العلمي اعطيا ويعطيان الحزب الشيوعي امكانية قيادة الحوادث قيادة واعية وبيد ثابتة.

وبفضل اكتشاف قوانين حركة المجتمع الاشتراكي، وبفضل دراسة حركات التطور الجديدة التي تظهر فيه يرسم الحزب الشيوعي، معتمداً على تحليل علمي، الآفاق الرائعة لتطور البلاد السوفياتية نحو الشيوعية. ان القدرة على التنبؤ التي تبعثها معرفة الماركسية، اللينينية تقوم على تحليل صارم دقيق لقوانين تطور المجتمع الاشتراكي الموضوعية.

ان اساس كل النشاط التاريخي الذي يمارسه الناس السوفياتيون في النظام الاشتراكي يقوم على علاقات الانتاج الاشتراكية. ان قوانين اقتصادية جديدة قد دخلت إلى مضمار العمل. وبالنظر إلى ان علاقات اقتصادية جديدة قد انتصرت في المجتمع الاشتراكي فان القوانين الاقتصادية المنبثقة من الصفة الخاصة لأسلوب الانتاج

الرأسمالي، قد فقدت قيمتها، لقد غادرت القوانين الاقتصادية الهرمة مسرح التاريخ واخلت المكان لقوانين أخرى منبثقة من شكل الملكية الاشتراكية، من علاقات الانتاج الاشتراكية، من التعاون الأخوي والمساعدة المتبادلة بين الشغيلة الذين تحرروا من كل استثمار.

مثلاً : طالما الملكية الرأسمالية لوسائل الانتاج قائمة، طالما ظل بالضرورة استثمار البورجوازية للبروليتاريا وظلت المضاربة الرأسمالية وفوضى الانتاج وأزمات فيض الانتاج وافتقار الطبقة العاملة، وتفاقم التناقضات بين البروليتاريا والبورجوازية، والصراع الطبقي الضاري .

ولما كانت علاقات الانتاج الرأسمالية قد زالت وحلت محلها علاقات الانتاج الاشتراكية، فقد بطل مفعول القوانين الرأسمالية ودخلت قوانين أخرى في مضمار العمل مثل القانون الاقتصادي الأساسي للاشتراكية وقانون تجديد الانتاج الاشتراكي الموسع، ومبدأ دفع الأجور حسب العمل. كما ان المزاحمة الرأسمالية أخلت المكان للمباراة الاشتراكية . ومحل قانون تأخر استهلاك (القدرة الشرائية) عن الانتاج، ـ وهو القانون الذي يسود العالم الرأسمالي ـ، نرى ان ازدياد الحاجات في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية يسبق تطور الانتاج، ومحل الفوضى والمزاحمة في الانتاج الرأسمالي، دخل قيد العمل فعل قانون تطور الاقتصاد الوطني تطوراً متناسقاً متناسباً أو بكلمة واحدة، حلت محل القوانين التي تعمل في النظام الرأسمالي قوانين جديدة منبثقة من ظروف اقتصادية جديدة .

وفي الوقت نفسه، نرى ان قوانين أخرى تميز الاقتصاد

الرأسمالي قد حدّت من مفعولها في النظـــام الاشتراكي ظروف جديدة وقوانين جديدة. فهكذا مثلاً تحددت دائرة قانون القيمة في المجتمع الاشتراكي ولم يبق ضابط الانتاج . ومن القوانـــين الجديدة الخاصة بالمجتمع الاشتراكي ، يمكن أن نذكر في الدرجة الأولى القانون الأساسي للاشتراكية الذي اكتشفه ستالين. وهذا القانون يحدد فعل جميع القوانين الاقتصادية الأخرى للاشتراكية.

ان ما يشكل في آن واحد جوهر القانون الاقتصـــادي الأساسي للاشتراكية وأهم ميزة لمقتضياته، إنما هو ضمـــان الحد الأقصى من تلبية حاجات المجتمع كله، المادية والثقافية الناميـة بلا انقطاع ، وذلك عن طريق زيادة واتقان الانتاج الاشتراكي بصورة دائمة ، على أساس تكنيك أرقى .

ان هذا القانون الاقتصادي الأساسي للاشتراكية لا يحـــد، غاية الانتاج الاشتراكي ومهماته ومغزاه فحسب ، بل يبين ايضاً السبل التي تؤدي إلى بلوغ هذه الغاية . زيادة واتقان في الانتاج الاشتراكي بصورة دائمـة ، على أساس تكنيك أرقى . ذلك هو جوهر النظـام الاقتصادي في المجتمع الاشتراكي ، وتلك هي معارضته الجذرية للنظام الرأسمالي .

ان الهدف الرئيسي ، ان القوة المحركة لتطور الانتـــاج في النظام الرأسمالي إنما هو الركض وراء الحد الاقصى من القيمـــة الزائدة ، إنما هو السعي وراء الحـد الأقصى من الربح (في ظل الرأسمالية التي بلغت مرحلة الاحتكارات) وذلك باستثمار الشعب ونهبه ، سيان كان ذلك في الداخل أو في الخارج . ان الشغيـلة

وحاجاتهم ليسوا بنظر الرأسمالية إلا وسيلة من الوسائل ، إلا مادة من المواد الأولية للاستثمار ، إلا أداة لبلوغ الغاية الأساسية. الحصول على الحد الاقصى من الأرباح .

وقلّ أن يهتم الرأسمالي بما يُنتج : سواء كان ذلك منسوجات قطنية ، أم زيت خروع ، دراجات أم مدافع ، أسمدة أم متفجرات ، غازات سامة أم آلات زراعية ، سيارات أم قنابل ذرية . بل ان صنع الأسلحة ، أسلحة التدمير الجماعي هو أوفر إيراداً للاحتكاريين الرأسماليين لأن في ذلك مصدراً لأعلى الأرباح وخير الصفات .

ولذا كانت إشاعة العسكرية في الاقتصاد والركض وراء التسلح في الولايات المتحدة وسائر البلدان الرأسمالية .

أما غاية الانتاج الاشتراكي فهي الناس ، الشغيلة ، الشعب ، بحاجاتهم المتعددة ، حاجاتهم المادية والثقافية النامية بلا انقطاع. وهذا هو مصدر تفوق الاقتصاد الاشتراكي وقوته التي لا تغلب . وهذا هو أساس الانسانية الحقيقية في النظام الاشتراكي ، خلافاً لما تتصف به الرأسمالية من طابع وحشي وعداء للشعب . ان الانسانية الاشتراكية تعبر وتعكس القانون الاقتصادي الأساسي للاشتراكية .

والقانون الاقتصادي الأساسي للرأسمالية ذو وجود موضوعي. وهو ينبثق من علاقات الانتاج الرأسمالية ، ويعبر عن جوهرها .

وللقانون الاقتصادي الأساسي للاشتراكية أيضاً وجود موضوعي وفيه يتجلى جوهر علاقات الانتاج الاشتراكية ، كما

ان مفعوله يسري بحكم الضرورة، وهو يحدد كل المظاهر الرئيسية في تطور الانتاج الاشتراكي .

ان فعل القانون الاقتصادي الأساسي للرأسمالية الحالية هو الذي يتيح لنا أن نفهم المظاهر الرئيسية للانتاج الرأسمالي واطوار ازدهاره وتدهوره، وأزماته . والقانون الاقتصادي الأساسي للاشتراكية يشترط استمرار تطور الانتاج الاشتراكي ووتيرات تطوره التي لم يسبق لها مثيل في التاريخ ، وتفوقه على الانتاج الرأسمالي .

ان تطور الانتاج الرأسمالي ، الذي ينبثق عن قانونه الاقتصادي الأساسي ، يستلزم حتماً إفقار الشغيلة إفقاراً مطلقاً ونسبياً ، وإفقار حياتهم كلها ، وتحويل الشغيل إلى ذيل ، وفعل هذا القانون هو أشد ضرراً في ظروف الاستعمار .

إن إنتصار أسلوب الانتاج الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي قد وضع حداً لفعل القوانين الاقتصادية الطاغية الرأسمالية وولد قوانين جديدة ملازمة للمجتمع الاشتراكي .

إن تطور أسلوب الانتاج الاشتراكي مرتبط ارتباطاً لا ينفصم باستمرار نمو رفاهية جميع الشغيلة ، المادية والثقافية .

أما في النظام الرأسمالي فان التقدم التكنيكي يرافقه افقار في شخصية الشغيل ، بل ان نور العلم الصافي ، كما يقول ماركس لا يمكن له أن يشع إلا في إطار من الجهل المطبق والغباوة ، والظلمات التي تفرضها الرأسمالية على الجماهير الشعبية .

وعلى النقيض من ذلك ، يتيح هذا التقدم التكنيكي ، في

ظروف الاشتراكية ، ورفع مستوى الشغيلة الثقــافي وتطوير كفاءاتهم ومواهبهم وأهلياتهم في جميع الاتجاهات .

ان العلم والتكنيك والمعرفة والثقافة ، هي ، في النظـــام الرأسمالي ، قوى يملكها الرأسمال وتوجه ضد العمال ، ضدالشغيلة. انها تصبح عدوة لهم ، انهـــا أدوات للاستثمار ولتكديس الرأسمال . والأمر على العكس في النظام الاشتراكي ، فالعــلم والتكنيك والمعرفة والثقافة في خدمة الشغيلة. انها أداةلتخفيف عملهم وهي تخففه فعلاً ، وهي ترفع انتاجيـــة العمل ، وتنمي سلطة الانسان على قوى الطبيعة .

وبقدر ما تتطور الرأسمالية بقدر ما يزداد عمق التعارض في المصالح الطبقية بين البروليتاريا والبورجوازية ، بين الفلاحــين والملاكين وبقدر ما تزداد حدة النضال الطبقي . وهذا مـــا يؤدي حتماً إلى الثورة الاشتراكية ، إلى نسف النظام الرأسمالي ، إلى خرابه. وعلى عاتق البروليتاريا المتحدة مع شغيلة الريف تقع مهمة انجاز هذه الثورة الكبرى . وجماهير الشغيلة يسوقهـا إلى النيام بهذه الثورة سوقاً مجرى الأمور ، وكل ظروف حيـاتهم . والبورجوازية ، بسياستها المغامرة ، المعادية للشعب ، بخيانتها للمصالح الوطنية ، وباحتقارها للديموقراطية ، تعجـل في حفر قبرها . ذلك هو منطق التاريخ .

لقد داست البورجوازية بأقدامها مبدأ المساواة بـين الناس والشعوب . ورمت إلى البحر راية الحريات البورجوازيـــة الديموقراطية وراية الاستقلال الوطني والسيادة الوطنية . وهذه

الراية ، تقع على الأحزاب الشيوعية والديموقراطية مهمة رفعها. ان هذه الاحزاب تحشد وتنظم الجماهير الشعبية في سبيل النضال ضد الرجعية الاستعمارية ، في سبيل الحرية والديموقراطية .

ان بلد الاشتراكية الظافرة ، الاتحاد السوفياتي ، هو اليوم ، بنظر جميع الشعوب،نجم القطب الذي يقودها في سيرها.وشغيلة جميع البلدان يلاحظون ان في العالم الرأسمالي تتطور وتتفاقم جميع التناقضات والتناحرات ، وعدم الاستقرار الداخلي،وان لا أمل للبورجوازية في الخروج من المستنقع الذي يتخبط فيه المجتمع البورجوازي . وهم يرون في الوقت نفسه ان الاتحاد السوفياتي وبلدان الاشتراكية تسير إلى أمام بصورة لا مردّ لها ، وان آفاقاً واسعة عظيمة تنفتح فيها أمام تطور القوى المنتجة وازدهار الثقافة الاشتراكية .

ها هنا عالمان يخضعان لقوانين متعارضة . هذه القوانين تحدد كل مظاهر الحياة في هذين النظامين الاجتماعيين .

وكلما تطورت الرأسمالية ، رأينا وما نزال نرى انالتضادّ الذي يفصل بين المدينة والريف ، بين العمل الفكري والعمل اليدوي آخذ في التطور ، وان الهوة الفاصلة بينهما تزداد عمقاً. بينما قاد انتصار أسلوب الانتاج الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي إلى القضاء على هذا التضاد بين العمل اليدوي والعمل الفكري ، بين المدينة والريف .

وفي الوقت الحاضر ، ما تزال بين العمل الجسدي والعمل الفكري ، بين المدينة والريف ، فروق أساسية . ولكن تطور

أسلوب الانتاج الرأسمالي ، يتيح التغلب على هذه الفروق ، شيئاً فشيئاً . وفي ذلك،في آن واحد ، شرط الانتقـال التدريجي من الاشتراكية إلى الشيوعية والتعبير عن هذا الانتقال .

ان اطراد محو الفروق الأساسية بين العمل الفكري والعمل اليدوي يظهر في ازدهار الثقافة التكنيكية لدى الجمـاهير الشعبية ، في نمو شبكة المؤسسات المدرسية نمواً ضخمـاً ، في تطور حركة جبارة يقوم بهـا المجددون ، شغيلة الطليعة ، في الانتاج الاشتراكي . ان الآفاق التي رسمهـا مشروع السنوات الخمس الخامس السوفياتي (من عام ١٩٥١ – ١٩٥٥) والـتي تقول بأن نظـام التعليم ذي السنوات العشر ونظام التعليم البوليتكنيكي سيصبحان إلزاميين، هي من أهم التدابير واحسمها من أجل تصفية الفروق التي ما تزال قائمة بين مستوى الثقافـة التكنيكية لدى مختلف الفئات الاجتماعية في الاتحاد السوفياتي.

ان التغلب نهائياً على الفروق الأساسية بـين العمل الفكري والعمل اليدوي بين المدينة والريف ، سيقود إلى محو السدود التي ما تزال قائمة بين الطبقات ، بين الفئات الاجتماعية ، أي العمال الكولخوزيين والمثقفين ، وسيجعل الوحدة السياسية والاخلاقية في المجتمع السوفياتي أكثر قوة وأشـد بأساً . هذا هو القانون التاريخي الجديد لتطور المجتمع الاشتراكي .

في النظام الرأسمالي تتكدس الثروة في قطب والبؤس في القطب الآخر. وتزاود الهوة عمقاً بين الطبقات . وينشب نضال طبقي لا شفقة فيه ولا رحمه، يؤدي إلى الحد الاقصى من عدم استقرار النظام

الرأسمالي بأجمعه . اما في ظروف الاشتراكية فالامر على العكس، اذ تمحى الفواصل بين الطبقات وتقوى وحدة المجتمع السياسية والاخلاقية ، وتعلو مقدرته وتشتد لحمته . وهذان القانونان المتضادان هما النتيجة الضرورية لتضاد أسلوبي الانتاج . ان خط تطور الرأسمالية هو خط هابط ، وها نحن نشهد تعفناً وأزمة يعصفان بكل النظام الرأسمالي . اما خط تطور الاشتراكيـة فهو خط صاعد ، يضمن أزدهار المجتمع وسيره الذي لا مرد له إلى امام نحو الشيوعية .

٢
كيف تولد الأفكار الاجتماعية

تعلمنا المادية التاريخيـــة أن الادراك الاجتماعي هو انعكاس الوجود الاجتماعي ، انعكاس شروط الحياة المادية للمجتمع فكما يكون الوجود الاجتماعي ، تكون الحياة المادية ، ويكون الادراك الاجتماعي . وكما ان الادراك بصورة عامــة هو ثمرة من ثمرات الطبيعة ، المادة ، وانعكاسها في رأس الانسان ، كذلك الادراك الاجتماعي هو ثمرة الشروط المادية في الحياة الاجتماعية وانعكاسها.

ان حياة المجتمع المادية هي واقع موضوعي ومستقل عــن ارادة الناس أما حياة المجتمع العقلية ، أي مجموعـــة الأفكار الاجتماعية ، والنظريات ، والأديان ، ونظريات علم الجمـــال ، والمذاهب الفلسفية فهي كلها انعكاس هــذا الواقع الموضوعي ، هذا الوجود الاجتماعي .

كتب ستالين :

« وبالتالي يجب البحث عن منشأ حياة المجتمع العقلية ، وعن أصل الأفكار الاجتماعية والنظريات الاجتماعية والآراء السياسية ، لا في الأفكار والنظريات ولا في الآراء والأوضاع السياسية نفسها بل في شروط الحياة المادية للمجتمع ، في الموجود الاجتماعي الذي تكون هذه الأفكار والنظريات والآراء وما إليها انعكاساً له[1] » .

لقد ظهرت وتطورت ، خلال التاريخ ، أشكال كثيرة من الادراك الاجتماعي : المذاهب السياسية والحقوقية ، والفلسفة ، والعلم ، والدين ، والآداب ، والفنون والأدب . ان وجوداً اجتماعياً واحداً ينعكس في شتى مظاهر الادراك الاجتماعي .

ان الادراك الاجتماعي ، والأفكار مهما كان الشكل الذي تتجلى فيه ، ليست أموراً معطاة دفعة واحدة ثابتة لا تتغير . بل الأمر على العكس ، فإدراك الناس والأفكار الاجتماعية ، مثل الحياة الاجتماعية تتحول وتتطور باستمرار .

وفي شتى مراحل التاريخ الاجتماعي تظهر أفكار اجتماعية مختلفة ، ونظريات مختلفة ، ومفاهيم مختلفة ، وأوضاع سياسية مختلفة . فعهد الرق تطابقه أفكار معينة ، ونظريات معينة ، ومفاهيم معينة ، وأوضاع سياسية معينة ، والنظام الاقطاعي تطابقه أُخر ، والنظام الرأسمالي تطابقه أُخر أيضاً وكذلك الأمر بالنسبة للنظام الاشتراكي ، على خلاف ما يطابق جميع الأنظمة السابقة . فما هو

---

(١) ستالين : تاريخ الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، منشورات دار الفارابي - صفحة ١٦٨ - .

سبب تغير الادراك الاجتماعي والأفكار وتطورهما ؟ ما هوقانون هذه التغييرات وهذا التطور ؟

يجب البحث عن سبب تغير الأفكار والنظريات السياسية والآراء وكذلك عن سبب تغير الأوضاع التي تطابقها ، لا في الأفكار نفسها ولا في المذاهب والأوضاع ، بل في تغير الشروط المادية للحياة الاجتماعية .

ان المثاليين يعتبرون الأفكار والنظريات والمذاهب العنصر الأول ، الأصلي ، عنصراً مستقلاً عن الوجود الاجتماعي . ولذا يبحثون عن أسباب تحول الأفكار والمذاهب والنظريات في الأفكار نفسها . وهم يعتبرون تطور الادراك الاجتماعي وتحولاته بمثابة حركة تطور مستقلة . فان هيغل ، مثلا ، يعتبر ان سبب تطور الادراك الاجتماعي انما هو امتداد «الفكر المطلق » وهو يؤكد ان تغيرات ما يسميه «العقل الكلي» وتطوراته ، هي التي تحدد تغيرات الإدراك الانساني ، وتطوراته ، تحدد تغيرات كل المجتمع وتطوراته . ان مثل هذا المفهوم ليس له أية صفة علمية ، لان « العقل الكلي » و « الفكرة المطلقة » ليسا الا وهما مثالياً لفقه هيغل تلفيقاً .

« ... ان الفكرة المطلقة ليست مطلقة – كما يقول انجلس – إلا لأنه [١] لا يعرف مطلقاً ما يقوله لنا عنها » [٢] .

ان علاقات الفكر بالكائن عند هيغل وعند سواه من المثاليين

---

(١) اي هيغل .

(٢) فردريك انجلس : لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية . دار النشر باللغات الاجنبية . موسكو ١٩٤٦ – ص ١٤ .

السابقين والحاضرين، مقلوبة . لقد قلبوها رأساً على عقب، وهذا ما يشوه العلاقات الصحيحة بين الطرفين. ان المثاليين يفصلون الفكر والادراك عن الناس الذين يفكرون ويدركون . انهم يحملون الفكرة والادراك الى ميدان المطلق ويصورونهما شيئاً يكتفي بذاته، شيئاً مستقلاً عن الشروط المادية للحياة الاجتماعية .

وهناك نوع آخر من المثاليين : إنهم أولئك الذين يبحثون عن منبع تطور الادراك الاجتماعي في الخصائص العجيبة « لروح قومية » او في فضائل « العرق » الصوفية .

على هذا الأساس مثلا تحدث العسكريون عن «الفكر الألماني الصحيح » وعن « الروح الآرية » وعن فضائلها «الخاصة» المختلفة عن فضائل سائر العروق التي هي عروق أدنى. وفي الوقت الحاضر يتحدث المستعمرون الأميركان والانكليز أيضاً عن الفضائل «الخاصة» بالعرق الأنكلو ساكسوني. وقد لفق مفكرو الاستعمار الأميركي مفهوم « نمط الحياة الأميركية » التي يطابقها « بناء خاص للفكر الأميركي » . والحق انه لم يكن هناك في الماضي ولا يوجد الآن في الحاضر، في الحياة الاجتماعية، مثل هذه الخصائص الراسخة الثابتة « للروح القومية » أو « لروح العرق ». ويثبت التاريخ ان افكار الناس والطبقات ومفاهيمهم تتحول تحت تأثير الظروف الاقتصادية. فنحن نشهد في العهد الواحد وفي الأمه الواحدة، وفي العرق الواحد ان مختلف الطبقات الاجتماعية تدافع عن أفكار ونظريات ومثل عليا ومبادىء ومذاهب سياسية وحقوقية متضادة بصورة مطلقة.

فهكذا مثلاً تقوم البورجوازية الاستعمارية الأميركية بالدعاية

الى حرب عالمية ثالثة ، وذلك ما يحتاجه الاقتصاد الاستعماري ، وقانون لرأسمالية المعاصرة الاقتصادي الأساسي. ان الركض وراء الحد الأقصى من الربح يدفع المحتكرين ، دفعا لا مناص منه ، الى تسعير نار الحروب ، لأن الحروب هي بنظرهم أفضل الصفقات مردوداً وأرباحاً. ولهذا السبب ايضاً كانت البورجوازية الأميركية عدوة استقلال الشعوب الوطني ، عدوة السلام والديموقراطية. وعلى عكس ذلك ، يناضل شغيلة الولايات المتحدة ، مثل سائر شعوب العالم ، ضد الحرب الاستعمارية ، لان الحروب لا تحمل الى الشعب غير الألم وغير الشقاء .

ان مفاهيم الطبقات المتناحرة في الأمة الواحدة والعرق الواحد ومثلها العليا ومصالحها الطبقية هي أيضاً متناحرة ومفكرو البورجوازية يجهدون أنفسهم في سبيل اخفاء هذا التناحر وتغطيته.

والتاريخ يثبت لنا ان طبقة اجتماعية واحدة ، البورجوازية مثلاً ، تدافع عن افكار ومفاهيم ومبادىء مختلفة. فهكذا مثلاً ، في الوقت الذي تصل فيه الرأسمالية الى مرحلتها الأخيرة ، مرحلة الاستعمار ، نشهد تحول الأخلاق البورجوازية والفلسفة البورجوازية ، نشهد تحول مفاهيم البورجوازية حول الديموقراطية والحرية وحول السيادة الوطنية للشعوب .

فيما مضى ، في المرحلة الصاعدة من تطور الرأسمالية ، كان بوسع البورجوازية ان تسمح لنفسها بأن تكون ليبيرالية (حرة). فقد دافعت عن الحريات الديموقراطية البورجوازية وأصبحت بذلك شعبية . أما الآن فلم يبق من ليبيراليتها أي أثر. لقد غدت اليوم

رجعيه. فالبورجوازية تدوس بالأقدام مبادىء المساواة في الحقوق بين الناس والأمم . ومفكرو البورجوازية الرجعيون جعلوا من أنفسهم دعاة تصفية السيادة الوطنية . والآن تبيع البورجوازية حقوق الأمة واستقلالها بالدولارات .

يجب ان نبحث عن أسباب هذا التحول في عقلية البورجوازية وخاصة في أفكارها السياسية والحقوقية، في مختلف مراحل تاريخها، لا في النطاق الفكري، بل في تغيير شروط في الحياة المادية للمجتمع .

يقول المثل : لكل زمن أغنية . ان ازمة الرأسمالية وحدة التناقضات التي تلغمها ، وتزعزع النظام ، والركض وراء الحد الأقصى من الربح، كل ذلك اضطر البورجوازية الاحتكارية الحاضرة لأن ترمي الى البحر الحريات الديموقراطية ومبادىء السيادة الوطنية .

ان النظام الاقتصادي هو قاعدة المجتمع ، والمفاهيم السياسية والحقوقية والدينية والجمالية والفلسفية، مع ما يطابقها من أوضاع ومؤسسات ، هي بناء فوقي قائم على تلك القاعدة .

والذي يميز قاعدة المجتمع الرأسمالي ، هو الملكية الخاصة، من النوع الرأسمالي ، لوسائل الانتاج، وعلاقات الاستثمار والعبودية التي يفرضها الرأسماليون على العمال ، وطريقة التوزيع الرسمالية. ان قاعدة الرأسمالية ، مثل قاعدة عهد الرق والنظام الإقطاعي ، تناحرية بطبيعتها ذاتها . وهي تقوم على السيطرة والاستذلال .

ولكن القاعدة الرأسمالية هذه قد حلت محلها ، بعد الثورة الاشتراكية في روسيا، قاعدة اشتراكية تتميز بالملكية الاجتماعية الاشتراكية ، لوسائل الانتاج ، بفقدان كل نوع من أنواع استثمار

الانسان للانسان، وبعلاقات التعاون والمساعدة المتبادلة بين الشغيلة الأحرار في المجتمع الاشتراكي ، وبالطريقة الاشتراكية في توزيع الثروات حسب كمية العمل ونوعه .

وللبناء الفوقي مثل القاعدة، صفة تاريخية . فكل قاعدة اقتصادية معينة يطابقها ، في كل فترة من فترات التاريخ ، بناء فوقي معين هو من نتاج تلك القاعدة. لقد انتجت القاعدة الاقطاعية بناء فوقياً اقطاعياً بكل مفاهيمه وأوضاعه الاجتماعية والسياسية ، والقاعدة الرأسمالية انتجت كذلك بناءها الفوقي الرأسمالي ، مثلما انتجت القاعدة الاشتراكية بناء فوقياً اشتراكياً يطابقها ويقوم عليها .

فينتج من ذلك ان مزية البناء الفوقي هي انه نتاج مرحلة توجد فيها قاعدة اقتصادية معينة . ولذا كانت حياة هذا البناء الفوقي قصيرة الأمد ، ولذا لا يعيش إلا زمناً محدوداً : فكل بناء فوقي يزول ، خلال التاريخ ، مع القاعدة التي قام عليها .

ان في تحولات القاعدة الاقتصادية يكمن السبب الحقيقي لتحولات حياة المجتمع الفكرية ، لتحولات افكاره الاجتماعية والسياسية والحقوقية والدينية والجمالية والفلسفية ، لتحولات نظرياته ومبادئه الأخلاقية .

في زمن الاقطاعية ، كانت الطبقة المسيطرة ، طبقة السادة ملاكي الأراضي ، تعامل الفلاحين معاملة البهائم . كان بوسع ملاك الأراضي ان يبيع القن ، وان يخسره في القمار ، وان يبادله بكلب ، وان يضربه حتى يموت في اسطبله . وكانت المفاهيم البهيمية حول الفلاح ، السائدة حينذاك ، تعكس الأوضاع الاقتصادية في المجتمع الاقطاعي

وفي المجتمع الرأسمالي الحالي، جعل العرقيون المالتوسيون الجدد، من أنفسهم دعاة « النظرية » المشهورة القائلة بضرورة القضاء على الانسانية عن طريق الحرب الذرية والجرثومية . وليست هذه الدعاية امرا لا يعاقب عليه القانون فحسب بل انها تلقى التشجيع من جانب البورجوازية ودولتها. ففي الولايات المتحدة يسود عدم المساواة بين البيض والسود. فليس بامكان الزنجي ان يسافر في قاطرة يسافر فيها البيض، ولا ان يعيش في بيت يعيش فيه ابيض، ولا أن ينزل في فندق ينزل فيه ابيض، وبوسع الرأسماليين وزلمهم « لنش »[1] الزنوج وقتلهم، دون ان يطالهم أي عقاب .

أما في بلاد الاشتراكية، فالدعاية للحرب والدعاية العرقية والدعاية لعدم المساواة بين الأمم، امور يعاقب عليها القانون .
ان الفرق بين الاقتصاد الرأسمالي والاقتصاد الاشتراكي يحتم الفرق بين الآراء السائدة .

ان الادراك الاجتماعي، كما قال ماركس، لا يمكن ان يكون شيئاً آخر غير ادراك الواقع. بل ان اشد التصورات الدينية أمعانا في الخيال ليست الا انعكاساً خاطئاً وممسوخاً، والحق يقال ولكنها مع ذلك انعكاس لشروط الحياة المادية .

ان العلاقات الاجتماعية بين الناس تجد، في العقلية البورجوازية، انعكاساً مشوهاً. ومع ذلك فالعقلية البورجوازية هي انعكاس

---

(١) Lynch : اي شنق الزنوج من قبل الغوغاء، مباشرة، دون اية محاكمة . وتلك طريقة مألوفة في الولايات المتحدة الاميركية، تجري تحت بصر السلطات وتغاضيها بل وتشجيعها .

لشروط الحياة المادية في المجتمع البورجوازي ، انها انتاج النظام الاقتصادين الرأسمالي ، نتاج قاعدته .

في الادراك الاجتماعي ، تنعكس شروط الحياة الاقتصادية. ولكن بأية طريقة تنعكس هذه الشروط في ادراك الناس ؟ ان ذلك يتعلق بدرجة التطور الاجتماعي ،بنظام المجتمع الاقتصادي، بوضع الطبقات التي ينعكس الوجود الاجتماعي في ادراكها ، وبطبيعة هذه الطبقات . ان دعاة التعليم والتبسيط يزعمون انهم يستنتجون الأفكار السياسية والحقوقية والدينية والجمالية والفلسفية والأوضاع التي تطابقها ، من مستوى القوى المنتجة مباشرة، لا بل من المستوى التكنيكي. ولكن الماركسية اللينينية قد حاربت دائماًمثل هذا المسخ للمادية التاريخية وأثبتت أنه ينبغي البحث عن منبع الأفكار الاجتماعية والسياسية والحقوقية والدينية في الاقتصاد قبل كل شيء .

من الاسهل ان نثبت علاقة تبعية الادراك الاجتماعي إزاء الشروط المادية للحياة الاجتماعية وقبل كل شيء ازاء النظام الاقتصادي في المراحل الأولى من التطور الاجتماعي ، لأن العمل الفكري لم ينفصل بعد فيها عن العمل اليدوي. وعملية تجديد انتاج الحياة الاجتماعية كانت آنذاك تتصف بالوحدة ، كانت تتصف بوحدة الكيان العضوية. وكان نشاط الناس الفكري، – كما يقول ماركس – مرتبط مباشرة بحياة المجتمع المادية .

ولكن بقدر ما كانت تظهر الطبقات المتناحرة وتبعد الشقة بين العمل الفكري والعمل اليدوي، كانت كل حياة المجتمع، وخاصة

الحياة الفكرية ، تزداد تعقيداً. فظهرت الدولة وظهر معها القانون والمذاهب السياسية والحقوقية والدينية والجمالية والفلسفية والأوضاع والمؤسسات المطابقة لها. وغدا انعكاس شروط الحياة المادية في رؤوس الناس معقداً الى اقصى حد. والتحول الفكري حددته هنا ايضاً القاعدة الاقتصادية للمجتمع. ولكن العقلية ، منذ أن تظهر على قاعدة نظام اقتصادي معين، تكتسب استقلالاً بالنسبة الى القاعدة الاقتصادية التي ولدتها.

يقول انجلس ان اولية العلاقات الاقتصادية على العقلية أمر لا جدال فيه.

« ان تفوق التطور الاقتصادي تفوقا نهائيـا جلي كذلك في هذا الميدان ايضاً ، ولكن في شروط حددها هذا الميدان نفسه. مثلاً في الفلسفة ، مفهوم التـأثيرات الاقتصادية (وهي تأثيرات تعمل ، معظم الأحيان ، بصورة سياسية او ... الخ) في المادة الفلسفية القائمـة التي خلفها الاسلاف [1] ».

ان للفلسفة في كل عصر ،بمثابة ،مواد أولية ، المواد الفكرية التي نقلتها اليها الأجيال السالفة وفي ذلك نقطة إنطلاقها.

ان مفكري الطبقات المسيطرة ، عندما يستنبطون نظريات سياسية وحقوقية ونظما فلسفية ومذاهب جمالية ،يستخدمون المواد التي كدسها أسلافهم في هذه الميادين. هذا ، مـع العلم ان

---

(١) انجلس «المفهوم المادي للتاريخ» لندن ٢٧ تشرين اول ١٨٩٠ الصيرورة الاجتماعية Le Devenir Social (المجلة الاممية للاقتصاد والتاريخ والفلسفة) كانون الثاني - كانون الاول - ج ٣ - عام ١٨٩٧ العدد ٣ آذار ص ٢٣٧

نقطة انطلاقهم، في كل مرحلة تاريخية، سواء عن وعي أم بدون وعي، وسواء بشكل سافر أم مستتر، إنما هي مصالح طبقتهم وبنهاية المطاف، مصالحها الاقتصادية. وفي هذا تظهر أولية العلاقات الاقتصادية على العقلية.

ان تطور بعض المظاهر الفكرية مثل الفلسفة والفن والأخلاق والدين يبدي بعض الاستمرار التاريخي. ففي روسيا مثلاً تنحدر التقاليد المادية في الفلسفة من لومونوسوف وراديشتشيف إلى هرزن وبيلانسكي ثم إلى تشرنيشفسكي ودوبروليوبوف. وفي النطاق الأدبي والفني رابطة متصلة بين مؤلفات غريبويدوف وبوشكين وليرمونتوف وغوغول وتورجنييف وتولستوي وغلينكا ودار غوميجسكي وموسور غسكي وبورودين وتشايكوفسكي.

وهناك روابط من هذا النوع وامتداد بين الأدب والفن الكلاسيكيين والأدب والفن السوفياتيين. ان الفن الاشتراكي السوفياتي مختلف بمبدئه نفسه، وجديد الكيفية من حيث جوهره الاجتماعي بالنسبة لكل ما سبقه ولا سيما بالنسبة للفن الكلاسيكي الروسي، ومع ذلك فبينهما رابطة مشتركة.

والماركسية اللينينية تقيم وزناً لهذا الامتداد وتؤكد انه يجب، لخلق وتطوير فن جديد، اشتراكي، أن يصار، بصورة انتقادية، إلى استيعاب التراث الفني لثقافة الماضي، تراث الفن الكلاسيكي الروسي، بكل ما فيه من تقدمي، وكذلك الفن الذي خلقته سائر الشعوب.

ان فن عصر النهضة، فن بوشكين وليرمونتوف وغوغول

وتولستوي وريبين وسوريكوف وغلينكا وتشايكوفسكي ، لم يختفي بعد اختفاء القاعدة التي قام عليها ، بل على عكس ذلك . فبعد الثورة الاشتراكية ، أصبحت مؤلفات هؤلاء الكتاب العظيمة لأول مرة ، تراث الملايين من الناس ، وهي ما تزال مصدر لذة جمالية فائقة نتمتع بها .

وقد كتب لينين في بحثه « حول ليون تولستوي »

ان تولستوي لم يكن يعرفه ، في عهد روسيا القيصرية ، إلا أقلية ضئيلة من السكان « ولكيما تصبح بالفعل مؤلفاته العظيمة في متناول الناس جميعاً يجب النضال ثم النضال ضد النظام الاجتماعي الذي ألقى الملايين وعشرات الملايين من الناس بين براثن الجهل والغباوة والاشغال الشاقة والبؤس ، يجب الثورة الاشتراكية »[1] .

هذه النبوءة الرائعة التي تنبأ بها لينين قد تحققت بعد انتصار الثورة البروليتارية في روسيا .

وما قاله لينين عن مؤلفات تولستوي ينطبق على الأدب الروسي كله ، وعلى الفن الكلاسيكي الروسي كله ، بل ينطبق كذلك على كل المؤلفات الكبرى التي أنتجتها شعوب الاتحاد السوفياتي ، وعلى كنوز الفن الكلاسيكي في العالم كله ، على فن شكسبير وبالزاك وبيتهوفن وبيزيه وشوبان وليست وغوته وهاين. فقط الثورة الاشتراكية والنظام الاشتراكي استطاعا أن يهبا عشرات الملايين ومئات الملايين من الشغيلة امكان الوصول إلى كنوز الأدب الكلاسيكي الخالدة ووضعا الفن في خدمة الشعب .

---

(١) لينين : مقالات عن تولستوي دار النشر باللغات الأجنبية . موسكو ١٩٥١ ص ١١

والحزب الشيوعي يحـــارب أولئك الذين يحتقرون التراث الفني الكلاسيكي وأولئك الذين يقفون موقفاً ذليلاً من الثقافـــة البورجوازية السائرة في طريق الانحطاط في هذه الأيام .

ان العقلية الاشتراكية ، من حيث جوهرها الطبقي، مختلفة اختلافاً جذرياً عن كل العقليات التي سبقتها. ولكنها لا تنمـــو بقطع وشائج القربى بالتراث الثقافي في الماضي .

ان تحليل ولادة الوعي الاجتماعي وتطوره،ودراسة علاقاته بالنظام الاقتصادي للمجتمع يتطلبان حسبان الحساب أيضـــاً للتفاعل المتبادل بين مختلف أشكال العقلية : بين الأخلاق والدين، والأخلاق والقانون ، والأخلاق والفن ، والفن والفلسفة الخ .. فهكذا مثلاً أثر الدين والفلسفة في تطور الأخـلاق ، وأثر الدين في تطور الفلسفة المثالية وأثرت الفلسفة والدين في الفن . ومـــن الضروري على الخصوص حسبان الحساب للتـأثير الشديد الذي مارسته المفاهيم السياسية والحقوقية والأوضاع المطابقـة لها في الفلسفة والعلم والفن والأخلاق والدين .

اننا لا نستطيع أن نفهم فهماً صحيحاً الحركة المعقدةلتطور الوعي الاجتماعي وتطور الحياة الفكرية لدى كل طبقـة ولدى المجتمع كله، ما لم نحسب حساب كل هذه التأثيرات والتفاعلات .

وعلى عكس ذلك نجد ان مبسطي الماركسية، أنصار المادية الاقتصادية ، كانوا يجهدون أنفسهم لاستنتاج العقلية استنتاجـاً مباشراً من مستوى الانتاج . انهم كانوا يتمثلون العلاقات بين الأشكال الفكرية وقوى المجتمع المنتجـة تمثيلاً مبسطاً ، غير صحيح. ولم يستطيعوا أن يفهموا أن مستوى تطور القوى المنتجة

لا ينعكس انعكاساً مباشراً في العقلية بل ينعكس انعكاساً غير مباشر عندما تظهر هذه التحولات وكأنها منعكسة بصورة منحرفة عبر القاعدة الاقتصادية . كانوا لا يحسبون حساب التفاعلات المتبادلة بين مختلف أشكال الادراك الاجتماعي وتأثير الدولة وسياستها على جميع أشكال هذا الادراك . وكانوا ، في محاولتهم استنتاج العقلية استنتاجاً مباشراً من مستوى القوى المنتجة ، غير قادرين على تفسير حوادث مثل ازدهار الفن اليوناني في القديم وفن عصر النهضة والأدب والفن الروسيين في النصف الأول من القرن التاسع عشر . فان مجتمع عهد الرق في اليونان القديمة ، مثلاً ، كان ، من حيث مستوى تطور القوى المنتجة ، أدنى بكثير من المجتمع الاقطاعي ، ومع ذلك فقد كان تطور الفنون في اليونان القديمة أرقى بكثير من تطور الفنون في المجتمع الاقطاعي في القرون الوسطى .

ولقد أثبت ماركس وانجلس في البيان الشيوعي ان الرأسمالية قد قفزت بتطور القوى المنتجة قفزة رائعة . ومع ذلك يلاحظ ماركس « ... ان الانتاج الرأسمالي يعادي بعض فروع الانتاج الفكري مثل الفن والشعر[1] » .

وهذه الأنواع من التنافر وعدم المطابقة بين ازدهار بعض أشكال الفن وبين تطور الانتاج تجد تفسيرها في شروط الحياة الاجتماعية ، في نظام المجتمع الاقتصادي .

ان بين مستوى تطور الانتاج في روسيا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر وبين ذلك الازدهار الرائع في أدبها وفنها

---

(١) كارل ماركس وفردريك انجلس : « في الأدب والفن » .

تنافراً يبدو لأول وهلة غير ذي تفسير . كانت روسيا في ذلك العصر بلاداً متأخرة اقتصادياً ، بلاداً اقطاعية . وكان يسودها الطغيان والحكم الكيفي والاستبداد القيصري . وكان كل سكان روسيا تقريباً أميين ما عدا الفئات الاجتماعية المحدودة جداً من النبلاء والعامة . ومع ذلك فقد نما في هذه البلاد أدب رائع ومجموعة لامعة من الشعراء والكتاب والنقاد من أمثال بوشكين وليرمونتوف وغريبويدوف وريلييف وهرزن واوغاريف وغوغول وغونتشاروف وتورجنييف ودوستويفسكي ونيكراسوف وبيلنسكي ودوبروليوبوف وتشيرنيشفسكي وسالتيكوف – تشيدرين وغير أولئك .

وفي منتصف القرن المنصرم تلألأ وجه ليون تولستوي العملاق الذي زينت مؤلفاته عصراً كاملاً وكانت مرحلة جديدة من مراحل تطور الانسانية الفني . وليس ثمة بلد من بلاد العالم عرف مثل هذا الازدهار الأدبي أو مارست فيه الأفكار والأدب مثل هذا التأثير على مجرى الحياة الاجتماعية .

أو ليس هذا الحدث مناقضاً لمفهوم الحياة الاجتماعية المادي؟ كلا ثم كلا . ان هذا الحدث لا يناقض إلا المفاهيم السطحية في « المادية الاقتصادية » .

لقد كان الأدب الروسي الكلاسيكي الطليعي التعبير الفكري عن النزاعات بين القوى المنتجة الجديدة التي كانت تنضج في حضن المجتمع الاقطاعي نفسه وبين علاقات الملكية الاقطاعية (علاقات الانتاج الاقطاعية) التي اجتازتها الحياة وأصبحت عائقاً يعوق تطور القوى المنتجة وتطور المجتمع في مجموعه . ان

التنافر بين علاقات الانتاج القديمة وصفة القوى المنتجة الجديدة هو الأساس الاقتصادي لتفاقم النضال الطبقي في روسيا بين الفلاحين والملاكين العقاريين . وثورة الديسمبر بين (١٤ كانون الاول – ديسمبر – ١٨٢٥) كانت محاولة قام بها رجال التقدم في روسيا آنذاك ، والثوريون من النبلاء ، لقلب القيصرية والاقطاعية . ولكن الديسمبريين لم يكونوا مرتبطين بالشعب ولهذا منيت هذه المحاولة بالاخفاق ، وعادت الرجعية تستبد أشد مما مضى .

في هذه الاحوال ، كان الادب ، مثل الفلسفة المادية التي دشنها الديموقراطيون الثوريون الكبار من أمثال بييلانسكي وهرزن ونشيرنيشيفسكي ودوبروليوبوف ، وسيلة جبارة بيد رجال التقدم في روسيا ، للتعبير في ميدان الافكار عن المعطلبات المادية والسياسية الناشئة ، وسلاحاً فكرياً في يد القوى التقدمية في المجتمع ، وتعبيراً عن النضال الطبقي الذي يخوضه الفلاحون ضد القنانة والقيصرية .

ان الأدب الكلاسيكي الروسي في القرن التاسع عشر يتصف بتعبيره ، في شكل فني بلغ درجة من الاتقان لا تضارع ، عن أفكار وآمال التعب المضطهد الذي كان قوة التقدم الأساسية في روسيا . لقد ولد الأدب الروسي الكلاسيكي ونما قبل كل شيء كقوة قائدة ضد القنانة . واعمق ينبوعه ، إنما هي التناقضات الاقتصادية والسياسية في روسيا في ذلك العهد ، وحقد الفلاحين الذي لا يخمد ضد القنانة ، ضد ملاكي الأرض الذين كانوا يستثمرونهم ويستعبدونهم. لقد عبر الادب والفن الكلاسيكيان

الروسيان في القرن التاسع عشر عن استنكار القوى التقدمية ، والفلاحين قبل الكل ، للقنانة والقيصرية ، والمزية الأساسية لهذا الأدب وذاك الفن ، هي انهما من وحي الشعب ، وتلك المزية هي مصدر قوتهما وعظمتهما الخالدتين .

وهناك عوامل أخرى أثرت في تطور الأدب والفن الكلاسيكيين في روسيا . فنحن نذكر ان روسيا في عام ١٨١٢ عانت غزو نابوليون . ولقد هب الشعب كله ، وعلى رأسه كل ما فيه من تقدمي ، للدفاع عن الوطن. وهزيمة هذا العدو المتغطرس الذي كانت ترتجف أمامه أوروبا الغربية كلها ، أثارت موجة من الاعتزاز القومي ، والشعور الوطني أخصبت الادب الروسي على نطاق واسع .

ولذا لا يكفي لفهم هذا الحدث الفكري أو ذاك ولمعرفة جذوره وينابيعه الاجتماعية ، الاعتماد على مستوى تطور القوى المنتجة ، بل يجب الاطلاع على كل النظام الاقتصادي للمجتمع ، على التوافق أو عدم التوافق بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج ، على النضال الطبقي ، على الظروف الملموسة في عهد من العهود .

يجب البحث عن ينبوع الافكار الجديدة ، الافكار التقدمية ، في النزاع بين القوى المنتجة الجديدة وعلاقات الانتاج القديمة ، في الضرورة الناشئة القاضية بتدمير علاقات الانتاج القديمة واستبدالها بعلاقات جديدة توافق نمو القوى المنتجة . ان التنافر بين القوى المنتجة الجديدة والنظام الاقتصادي البائد هو ينبوع النزاعات الاجتماعية ومصدر تفاقم النضال الطبقي ، ومصدر الثورات الاجتماعية .

ان تاريخ الرأسمالية يعطينا عدداً غير قليل من الامثلة عن بلدان

متأخرة من الناحية الاقتصادية ولكنها لعبت دوراً أساسياً في المجال الفكري بالنسبة لبلدان أخرى أكثر منها تقدماً من الناحية الاقتصادية. مثلاً، كانت المانيا في منتصف القرن التاسع عشر بلداً متأخراً اقتصادياً بالنسبة إلى انكلترا وفرنسا. ومع ذلك ففي المانيا ولدت أكثر الافكار ثورية وأشد المذاهب روعة: الماركسية. وذلك ناتج من الظروف والاسباب الآتية: ان علاقات الانتاج الاقطاعية في المانيا في ذلك العهد لم تكن توافق قط القوى المنتجة الجديدة، وهي في أوج تطورها. وعلى هذا الاساس نضجت الثورة الديموقراطية البورجوازية. ومن جهة أخرى، –وفي ذلك واقع بالغ الاهمية– كان لهذه الثورة ان تتم في ظروف أكثر ملاءمة إلى ما لا حد له بالنسبة لظروف الثورة في انكلترا في القرن السابع عشر وفي فرنسا في القرن الثامن عشر. ففي المانيا، سنة ١٨٤٨، كانت هنالك طبقة عاملة منظمة. وهكذا كان بوسع الثورة الديموقراطية البورجوازية ان تتحول، في ظروف ملائمة، إلى ثورة اشتراكية. ولهذا ولدت المانيا الماركسية وكان زعماء الطبقة العاملة الالمانية مبدعو هذا المذهب.

واللينينية، أي ماركسية عصر الاستعمار والثورات البروليتارية، ولدت في روسيا، أي في بلاد لم يكن فيها أيضاً تطور القوى المنتجة متقدماً جداً. ولكن اللينينية ولدت في روسيا في عهد توترت فيه تناقضات الاستعمار العالمي إلى أقصى حد، في زمن تحولت فيه الرأسمالية، التي كانت مزدهرة فيما سبق، إلى رأسمالية احتكارية يدب فيها التعفن، في عهد كانت فيه الثورة البروليتارية قضية الساعة.

ان جميع تناقضات الاستعمار العالمي كانت تتشابك في روسيا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وكانت روسيا بلاداً تعاني نيراً اقتصادياً وسياسياً وقومياً ثقيل الوطأة جداً، بلاداً بلغت فيها تناقضات الاستعمار أقصى حد من العمق والشدة. وهذه القوة، التي هي أكبر القوى وأشدها ثورية، كانت موجودة في روسيا: الطبقة العاملة الروسية وحليفتها طبقة الفلاحين الشغيلة. كانت هذه الطبقة قادرة على حل جميع هذه التناقضات حلاً ثورياً. لقد كانت روسيا في مطلع القرن العشرين، على أبواب ثورة ديموقراطية بورجوازية. فقد كانت تتوافر فيها امكانية فعلية لتحويل الثورة الديمقراطية البورجوازية إلى ثورة اشتراكية. ولهذا كانت روسيا، دون أي قطر آخر، وطن اللينينية وكان زعيم الطبقة العاملة الروسية، لينين، هو مبدع اللينينية.

ان تحليل الجذور التاريخية للينينية تحليلاً عميقاً هو طريقة صالحة لدراسة الأسباب والشروط التي تؤدي إلى ولادة وتطور الأشكال الجديدة للوعي الاجتماعي وللافكار والنظريات السياسية.

ان محرفي ومزوري الماركسية قد اجهدوا وما يزالون يجهدون أنفسهم (وخاصة في ألمانيا الغربية) لتشويه المفهوم الماركسي عن العلاقات القائمة بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي تشويهاً مثالياً. انهم ينقحون الماركسية زاعمين ان الوجود الاجتماعي يطابق الوعي الاجتماعي. إلا ان هذه الوحدة ليست موجودة. فالوعي الاجتماعي يعكس الوجود الاجتماعي، الحياة المادية، ويخيل إلينا بادىء بدء ان الصفه الرئيسية للحياة الاجتماعية إنما هي، على وجه الضبط، كونها واعية، على نقيض الطبيعة، على نقيض سيادة

القوى العمياء، حيث لا اهداف ولا رغبات واعية. أما في المجتمع، فانهم الناس هم الذين يفعلون، الناس المتمتعون بالعقل والادراك والارادة، وليس من شيء يتم في المجتمع دون أن تشترك فيه العقول والرغبات والارادات، دون أن يضع الناس نصب أعينهم أهدافاً معينة ودون أن يناضلو في سبيل بلوغ هذه الأهداف.

وواقع ان الناس، هم الذين يفعلون، الناس المتمتعون بالادراك والارادة، وان جميع الأحداث التاريخية مصحوبة بنضال فكري، وان الناس والطبقات يناضلون في سبيل الوصول إلى اهداف معينة، ان هذا الواقع يخلق في أذهاننا وهماً يقوم على ان الادراك والأفكار هما السبب الأول والحاسم والقوة المحركة الرئيسية في التطور الاجتماعي. والمثالية تستغل هذا الوهم في نضالها ضد تفسير التاريخ تفسيراً علمياً ومادياً. وهي تهرع لاجئة إلى سفطه توجد بين الوجود الاجتماعي والادراك الاجتماعي.

ان المفهوم المثالي عن العلاقات بين المادي والمثالي، بين الوجود الاجتماعي والادراك الاجتماعي، قد وجد تعبيره أيضاً في مؤلفات المحرفين الذين يهربون تحت ستار الماركسية، كل ما في المثالية البورجوازية من أشياء عتيقة، بالية. هكذا مثلاً، فعل الاشتراكي – الديموقراطي النمساوي ماكس ادلر، و «الماشي» الروسي بوغدانوف. وهناك محرفون آخرون حاولوا اثبات وحدة الوجود الاجتماعي والادراك الاجتماعي.

وقد دحض لينين هذا التوحيد الذي يدل على مثالية ذاتية وبين انه لا يمكن توحيد الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي. فليس الوعي الاجتماعي، في جميع الظروف وفي جميع التكوينات

(الأنظمة) الاجتماعية، غير انعكاس الوجود الاجتماعي. وعلاوة على ذلك، لا تنعكس تحولات الوجود الاجتماعي في الوعي الاجتماعي بعد أن تحدث هذه التحولات.

ان ظهور قوى منتجة جديدة وعلاقات انتاج جديدة ليس من صنع عمل واع يفكر به الناس سلفاً، ولكنه يحدث بصورة عفوية، خارج ادراك الناس وارادتهم، رغم انه يتحقق عبر الناس المتمتعين بالادراك والارادة. وذلك لسببين:

١ - لأن الناس ليسوا احراراً في اختيار هذا الأسلوب من الانتاج أو ذلك. فكل جيل جديد يجد نفسه أمام قوى منتجة وعلاقات من الانتاج موجودة من قبل ومن صنع الأجيال السابقة.

٢ - ان ظهور قوى منتجة جديدة وعلاقات انتاج جديدة يحدث عفوياً، ولكن الناس، وهم يقومون باتقان ادوات الانتاج أو هذا المظهر أو ذاك من القوى المنتجة، لم يكونوا يدركون النتائج الاجتماعية المترتبة على هذه التجديدات. وادراكهم على العموم، لم يكن يعدو دائرة المصالح اليومية المباشرة.

مثلاً: ان الرأسماليين الروس والاجانب، عندما ادخلوا إلى روسيا الصناعة والآلة، كانوا يجهلون بكل تأكيد، النتائج الاجتماعية لهذا التطور في القوى المنتجة. ولم يكونوا يدركون ان هذا العمل سيقود إلى اعادة تجمع القوى الاجتماعية تجمعاً يجعل في امكان الطبقة العاملة المتحدة مع الفلاحين تحقيق ثورة أوكتوبر الاشتراكية الظافرة. كان الرأسماليون يريدون فقط تطوير الانتاج الصناعي والحصول على مزيد من الأرباح.

ولكن عندما تظهر قوى منتجة جديدة، عندما يبرز

النزاع بين القوى المنتجة الجديدة وعلاقات الانتاج القديمة ، عند ذلك فقط يحل نشاط القوى الاجتماعية الطليعة الواعي محل التطور العفوي ، ومحل التطور السلمي يحل انعطاف فجائي ، ومحل التطور الثورة. هكذا كان الأمر بالنسبة لكل التكوينات (الأنظمة) الاجتماعية التي سبقت الاشتراكية .

يقول لينين :

« في الاقتصاد العالمي ، كل منتج على حدة يدرك انه يدخل هذا التبديل أو ذاك في تكنيك الانتاج ، وكل مالك يدرك انه يبادل هذه المنتوجات بتلك المنتوجات . ولكن هؤلاء المنتجين والمالكين لا يدركون انهم يبدلون بالتالي الوجود الاجتماعي . ان سبعين فيلسوفاً من أمثال ماركس لا يكفون للاحاطة بمجموعة هذه التعديلات في جميع فروع الاقتصاد الرأسمالي العالمي . والأمر الجوهري ، هو انه تم اكتشاف قوانين هذه التعديلات وتحديد تطورها الاجتماعي ومنطقها الموضوعي في خطوطها الكبرى ... وكونك تعيش ، وتنجب أطفالاً ، وتمارس نشاطاً اقتصادياً ، وتصنع منتوجات ، وتبادلها ، يحدد سلسلة موضوعية وضرورية من الحوادث والتطورات ، مستقلة عن وعيك الاجتماعي الذي يحيط بها من كل جوانبها . وأنبل مهمة تضطلع بها الانسانية هي ان تحيط بهذا المنطق الموضوعي للتطور الاقتصادي (تطور الوجود الاجتماعي) في معالمه العامة الأساسية لكي تكيف عليه بأوضح ما يمكن ، وبفكر نقادا ، ادراكها

الاجتماعي وادراك الطبقات المتقدمة في جميع البلدان الرأسمالية[1]» .

هذا المنطق العلمي لتطور الرأسمالية الاقتصادي ، إنما كانت الماركسية أول من اكتشفه .

ان مفكري البورجوازية ، ان الاقتصاديين البورجوازيين ، لم يكن بوسعهم ان يفهموا الطبيعة الحقيقية لأسلوب الانتاج الرأسمالي وللمجتمع الرأسمالي. وكان يحال بينهم وبين ذلك سدود من مصالحهم الطبقية ، وضيق نظرتهم الطبقية التي كانت تجعلهم يعتبرون الشكل الحالي للمجتمع ، وكأنه خالد ، وكأنه طبيعي وكأنه في منجاة من صيرورة التاريخ . ولم يكن بوسعهم ان يكتشفوا العلاقات بين الناس وراء العلاقات بين الأشياء ، بين البضائع . ان مفكري البورجوازية قد طغى عليهم تأليه البضاعة. وهم يهبون الأشياء ومنتجات النشاط الانساني ، خصائص فوق الطبيعة ، خصائص صوفية وهذا التأليه ، هذه النظرة الشوهاء التي هي من صفات المجتمع الرأسمالي ، يطبقها مفكرو البورجوازية في ميدان العلاقات الاجتماعية أيضاً: في ميدان علاقات الاقتصاد والسياسة ، والملكية والقانون ، والوجود والادراك . ان العقلية البورجوازية تصور هذه العلاقات بشكل مشوه تماماً ، «رأسها إلى أسفل». غير ان تطور الرأسمالية التاريخي قد ادى إلى ازدياد عمق تناقضاتها الداخلية وإلى تفاقم حدة هذه التناقضات. وكلما كانت البورجوازية تتخبط

---

(١) لينين : الماديه والنقد التجريبي . دار النشر باللغات الأجنبية . موسكو ١٩٥٢ ص : ٣٧٨ .

في شباك هذه التناقضات كلما كان العلم البورجوازي والمفكرون البورجوازيون يشوهون تصوير المجتمع الرأسمالي وكلما كانت البورجوازية تغرق في غمار الصوفية .

وفي الظروف الحالية التي تمر بها الأزمة العامة للرأسمالية ، تعتبر البرجوازية كما يعتبر مفكروها ان مهمتهم الأساسية في ميدان الفكر ، ليست قط في اكتشاف الحقيقة بل في اخفائها ، وفي السعي إلى تصوير الأسود أبيض ، والشر خيراً ، والكذب حقيقة .

في النظام الرأسمالي ، وبسبب طبيعته التناحرية وفوضى الانتاج ، ليس الناس هم الذين يتحكمون بالانتاج ، بل ان الانتاج هو الذي يتحكم بالناس . وأسلوب الانتاج الرأسمالي ، الذي يشكل دعامة المجتمع البورجوازي ، إنما هو ثمرة العمل العفوي لقوانين الاقتصاد البضاعي . وكلما تطورت علاقات الاقتصاد البضاعي الرأسمالي خلال التاريخ ، اتسعت أكثر فأكثر حلقة الناس والبلدان الذين تسيطر عليهم هذه العلاقات ، وكلما امتد نظام العلاقات البضاعية من النوع الرأسمالي فشمل جميع فروع الحياة الاقتصادية في كل بلد من البلدان ، وكلما فقد الناس أكثر فأكثر سيطرتهم على علاقاتهم الانتاجية نفسها ، وبالتالي ، على العلاقات الاجتماعية الأخرى ، ويصبحون عبيداً لمنتجات نشاطهم نفسه . وهذا ما تعبر عنه فوضى الانتاج وأزمات فيض (تزايد) الانتاج وازدياد عدد العاطلين عن العمل زيادة مخيفة ، وتدمير القوى المنتجة التي خلقها الانسان .

وكلما عظمت الفوضى ، وبدت التناقضات غير قابلة للحل ، هذه التناقضات التي ولدها النظام الرأسمالي نفسه ، اضطر مفكرو

البورجوازية أكثر فأكثر لتلفيق نظريات رجعية غير انسانية تتناول زيادة عدد السكان وازلية الحرب ونفعها ، والتخلي عن السيادة القومية ، وما إلى ذلك .

ان المستعمرين ومن يخدمهم على المفكرين لا يستطيعون ، بطبيعة وضعهم الطبقي ذاته ، ان يحللوا عيوب النظام الرأسمالي تحليلاً صحيحاً ولا أن يخلصوا إلى ضرورة استبداله بنظام آخر يوافق الصفة الحالية للقوى المنتجة . فقط الطبقة التقدمية اليوم، الطبقة العاملة ، تستطيع استخلاص مثل هذه النتائج . ان البورجوازية ومفكريها يبحثون عن حل لتناقضات الرأسمالية الحاضرة في حروب جديدة أي في آفات وأوبئة جديدة تصيب الانسانية .

لا العاصفة ولا الجفاف ولا الطوفان ولا الطاعون ولا الهزات الارضية، ولا أية آفة من آفات الطبيعة تلحق بالانسانية اضراراً تضاهي ما يلحقه بها عمل القوى الرأسمالية العفوي وكل النشاط الذي تقوم به الرجعية الاستعمارية . فالفوضى والعفوية العمياء، وصفة التطور التناحرية المدمرة، كل ذلك ملازم لطبيعة الرأسمالية نفسها .

« من المستحيل في الرأسمالي ان يكون تطور مختلف الاقتصاديات ومختلف الدول تطوراً متساوياً . والسبل الوحيدة الممكنة لاعادة التوازن المفقود ، من حين إلى حين، إنما هي ، في النظام الرأسمالي ، الازمات في الصناعة والحروب في السياسة[1] » .

(١) لينين . المؤلفات المختارة في جزئين المجلد الاول ، القسم الثاني . دار النشر باللغات الأجنبية . موسكو ١٩٥٣. ص ٤١٦ .

ان محاولات «برمجة» الاقتصاد الرأسمالي تدل على الجهود التي يبذلها رجال السياسة من البورجوازية في سعيهم إلى التغلب على التناقضات الداخلية النامية باستمرار في قلب الرأسمالية، وهي في الوقت نفسه اعتراف، ولو انه اعتراف ضمني بأن القوى المنتجة قد ارتدت في الوقت الحاضر، طابعاً اجتماعياً وتجاوزت نطاق علاقات الانتاج الرأسمالي والملكية الخاصة ذات الشكل الرأسمالي. ان القوى المنتجة العملاقة في العصر الحاضر والملكية الخاصة لوسائل الانتاج امران متناقضان لا يمكن التوفيق بينهما. وما دام هذا التناقض قائماً بين صفة الانتاج الاجتماعية وصفة التملك الخاصة، ما دامت الفوضى، والتناقضات، والأزمات، وتدمير القوى المنتجة، وخطر الحروب الاستعمارية، والبؤس الذي يتفاقم أبداً على كاهل الملايين من الشغيلة.

ان البورجوازية الاستعمارية في هذه الساعة ليست في وضع تستطيع فيه ان تسيطر على القوى التي اطلقتها من عقالها دون ان ترغب في ذلك. والبورجوازية الاستعمارية تنخدع بقساوة متزايدة عند تقدير النتائج الاجتماعية لنشاطها ولاتجاه التطور التاريخي. ان التطور التاريخي خلال السنوات الست والثلاثين الأخيرة لا يوافق قط مراميها. وابداً يبدو للعيان قانون يميز كل التكوينات (الأنظمة) المتناقضة وخاصة الرأسمالية المعاصرة: ما تريده الطبقات الحاكمة ويستهدفه ساستها ومفكروها شيء، وما يحصلون عليه من نتائج شيء آخر. ولقد حلل المجلس الصفة العفوية لهذا التطور الاجتماعي فبين ان ما يرغب فيه هؤلاء لا يتحقق إلا نادراً جداً:

« ... في معظم الحالات تتشابك الأهداف وتتناقض،

أو انها تكون ، سلفاً ، غير قابلة للتحقيق ، أو ان الوسائل المتبعة لتحقيقها غير كافية . وهكذا نرى ان النزاعات بين الارادات الكثيرة والأعمال الفردية الكثيرة، التي لا عد لها، تخلق ، في مجال التاريخ حالة تشبه تماماً الحالة التي تسود في الطبيعة اللاواعية . ان اهـــداف الاعمال مقصودة ، ولكن النتائج التي تلي فعلاً هذه الأعمال ليست كذلك، وإذا بدت موافقة بادىء بدء للغاية المتوخاة ، فنتائجها النهائية تكون غير النتائج المقصودة »[1] .

ولنضرب على ذلك مثلاً حوادث السنوات الأخيرة التي ماتزال حية في ذاكرة الجميع. ونتسائل: هل كان الاستعماريون الفاشست في المانيا واليابان وحلفاؤهم وحدهم هم الذين انخدعوا حول مصير الحرب العالمية الثانية، عندما دبروا هذه الحرب ونظموها بقصد بسط سيطرتهم على العالم كله؟ كلا ، أبداً. فالطبقات الحاكمة في الولايات المتحدة وانكلترا، التي كانت قد ساعدت الفاشستية الالمانية وسلحتها ووجهتها ضد بلاد الاشتراكية، وقد انخدعت أيضاً. فان عداءها الطبيعي للاتحاد السوفياتي حال بينها وبين أن ترى وتقدر بصورة موضوعية قوة الاتحاد السوفياتي الاقتصادية والسياسية والعسكرية . ولم يكن بوسعها ان تتكهن بقوة الحركة المعادية للفاشستية وبمدى هذه الحركة التحررية التي قامت بها الجماهير الشعبية والتي نمت وتطورت إبان الحرب العالمية الثانية. ان هـــذه القوى قد بدلت إلى حد كبير الحسابات الستراتيجية والعسكريـــة

---

(١) فريدريك انجلس : لودفيـغ فيورباخ ونهايـــة الفلسفة الكلاسيكية الألمانية . دار النشر باللغات الأجنبية موسكو ١٩٤٦ . ص ٥٣ .

والسياسية ،التي حسبتها الفئات الحاكمة في البلاد الانكلوساكسونية .

ان حركة الجماهير الشعبية ضد الفاشستية قد أدت في جملة من بلدان أوروبا وآسيا الى انتصار الديموقراطية الشعبية ،الى تحريك الجماهير الشعبية في البلدان ، وانمت الى حد كبير جـــداً تأثير الأفكار الاشتراكية والأحزاب الشيوعية والعمالية ، وقوت سمعـة ونفوذ بلد الاشتراكية العظيم في عيون شعوب العالم اجمـــع ، وزادت وزن الاتحاد السوفياتي في القضايا الدولية .

أما الرأسمالية فقد خرجت مستضعفة من الحرب العالمية الأولى لأنها فقدت أكبر بلدان أوروبا ،ألا وهي روسيـا التي سارت في طريق الاشتراكية . وحين دبرت الرجعية العالمية الحرب العالميـة الثانية ،كانت تريد أن تضعف بلاد الاشتراكية وتقوي الرأسمالية ولكنها أدركت النتيجة المضادة : فان قوى الرجعية قد تضاءلت بينما تعاظمت قوى الاشتراكية والديموقراطية . وبديهي ان في ذلك واقعاً يزعج البورجوازية الى اقصى حد ، واقعاً لم يدخل في حساباتها وفي حسابات أبرز ممثليها « قادة » العالم الرأسمالي .

في الوقت الحاضر ، تتخبط الرجعية العالميـة اكثر فأكثر في التناقضات الناتجة من سياستها الداخلية والخارجية . والرجعية الاستعمارية الانكلوساكسونية ، في جهودها لقمع حركة التحرر الوطني والحركة العمالية الثورية في أوروبا وآسيا وافريقيا ، انما تثير ضدها موجة طاغية من حقد الشعوب في العالم كله . لقد زرعت الرجعية الريح وهي تحصد العاصفة . ذلك هو منطق الأشياء . ان نتائج اقتصاد البورجوازية وسياستها في البلدان الرأسمالية ولا سيما في اكبرها اي في البلدان التي تمارس نفوذاً حاسماً ، الولايات المتحـــدة

وانكلترا، تثبت اكثر فأكثر ان هذا النظام يمشي نحو الافلاس.

ان الرأسمالية الاحتكارية في الوقت الحاضر لا تستطيع البقاء دون تشديد دعائم استغلالها لشعبها ودون اللجوء دورياً الى اعادة اقتسام العالم، عن طريق العنف والحرب، دون التوسع الاستعماري، دون استعباد الشعوب الأخرى وخنق حريتها واستقلالها. ان ما تتصف به الرأسمالية من طابع تناحري، والنزاع الحالي بين القوى المنتجة العظيمة وعلاقات الانتاج الرأسمالية القديمة التي تفسخت اليوم وتجاوزتها الحياة، والمصالح الجشعة لسراة الرأسمال الاحتكاري، الذين يسعون بجميع الوسائل، حتى لقاء افدح الكوارث وأشد انواع التدمير، الى الحفاظ على الحد الأقصى من الأرباح كل ذلك يعرض للخطر وجود الحضارة المعاصرة نفسه.

والرجعية الاستعمارية التي تقودها الولايات المتحدة، في استعدادها لحرب عالمية ثالثة، تهدد اسمى ما وصلت اليه الانسانية من فتوحات في ميدان الثقافة. ولا يلجم قوى الرجعية الاستعمارية عن شن الحرب الا نضال اوسع الجماهير الشعبية في سبيل السلم، ومنع الحرب، سياسة الدفاع عن السلام التي يتبعها الاتحاد السوفياتي بصدق ودأب، واخيراً الا خوف هذه القوى من جبروت الاتحاد السوفياتي.

ولن يصبح بالمستطاع تنظيم الحياة الاجتماعية كلها وبرمجتها بصورة واعية إلا بالغاء علاقات الانتاج الرأسمالية. ان انتقال المجتمع الرأسمالي بكل ما فيه من عفوية الى المجتمع الاشتراكي حيث تخلي العفوية العمياء المكان للادراك ولتنظيم الانتاج الاجتماعي وبرمجته، ان هذا الانتقال يهيء له ويعد أسبابه منطق التطور الرأسمالي نفسه.

عندما استخلص لينين مغزى المرحلة الاحتكارية في الرأسمالية

توصل، حتى في مرحلة الحرب العالمية الأولى، الى الاستنتاج التالي: ان الاستعمار إنما هو الرأسمالية المحتضرة. ولا بد ان يؤدي التطور الاجتماعي، بالضرورة، الى الاشتراكية. وقد كتب لينين عشية ثورة اكتوبر يقول:

« ان المجرى الموضوعي للتطور يدل على انه لا يمكن التقدم، بعد **الاحتكارات** (التي زادت الحرب عددها ودورها واهميتها عشرات الأضعاف) دون السير إلى الاشتراكية »[1].

ويتبين من تاريخ المجتمع ومن الواقع الحالي في العالم الرأسمالي وفي المجتمع الاشتراكي ان الروابط وثيقة بين الافكار الاجتماعية وجميع اشكال التفكير دون استثناء (الأفكار السياسية والحقوقية الاخلاق، الدين، الفنون، الفلسفة) وبين صفة النظام الاقتصادي والصفة الرجعية للعقلية البورجوازية ليست إلا انعكاساً لتعفن الرأسمالية. ان الاقتصاد المتعفن في العالم الرأسمالي يولد عقلية رجعية متعفنة ومفاهيم سياسية عدوانية، واخلاقاً بورجوازية متفسخة، واستهتاراً وفناً وأدباً منحطين، وفلسفة ذات مثالية عتيقة.

ولكن، الى جانب البورجوازية، تنهض طبقة جديدة تقدمية، هي طبقة البروليتاريا، تحمل علاقات جديدة، اشتراكية. في الانتاج، وتوافق وضعها ومصالحها عقلية جديدة تقدمية، اشتراكية. ولقد انتصرت هذه العقلية انتصاراً تاماً في الاتحاد السوفياتي واصبحت عقلية المجتمع كله.

---

(١) لينين. المؤلفات المختارة في مجلدين. المجلد الثاني، القسم الأول. دار النشر باللغات الأجنبية موسكو ١٩٥٣. ص ١٤٩.

ففي بلاد السوفيات حيث تغيرت الشروط المادية الحيـاة الاجتماعية تغيراً جذرياً ، وحيث أنشىء نظام اشتراكي، حدث تبدل عميق في وعي الشعب ، واخلاق الناس ، ونفسياتهم وكل سيمائهم الفكرية .

وللمذهب المادية التاريخيـة ، الذي يرى ان الوعي الاجتماعي والأفكار الاجتماعية يحتمها النظام الاقتصادي ، أهمية عملية كبيرة جداً عند الطبقة العاملة وعند حزبها .

ان تجربة الاتحاد السوفياتي تثبت ان النضال الثوري وتدمير النظام الاقتصادي الرأسمالي الرجعي واستبداله بنظام اقتصادي اشتراكي شرط ضروري لتدمير الاشكال البورجوازية والرجعية من الادراك ،والاخلاق المؤسفة ، والافكار ، والنظريات السياسية والرجعية ،ولاقامة افكار اشتراكية تقدمية مع كل مايرتبط بها من مؤسسات واوضاع واخلاق ومثل عليا ومبادىء .

من هنا ايضاً تنجم بعض النتائج التي تهم الطبقـة العاملة في البلدان الرأسمالية ، هذه الطبقة التي تناضل ضد الرأسمالية وضد العقلية الرجعية البورجوازية ، وضد الدعاية للمذاهب الصوفية وللحقد بين الناس ولحروب النهب والسلب .

وبما ان الادراك الرجعي البورجوازي واخلاق البورجوازية المتفسخة وافكارها،تحددها ظروف الحياة الاجتماعية وشروطها المادية ، كان من الضروري ،من اجل القضاء على هذه العقلية وهذه الاخلاق ، تغيير شروط حياة الناس تغييراً جذرياً في المجتمـع الرأسمالي الذي يولد هذه الافكار الرجعية وهذه المفاهيم وهـذه النظريات وهذه المذاهب وهذه الاخلاق .

يجب توفير شروط حياة تليق بالانسان وتطابق مستوى القوى المنتجة الحالي في المجتمع وصفتها. وهذه الشروط إنما يخلقها المجتمع الاشتراكي. وطريق الوصول إليها، انما هي في نضال البروليتاريا الطبقي، في الثورة الاشتراكية ، في دكتاتورية الطبقة العاملة .

٣

الصفة الطبقية للعقلية في المجتمعات التناحرية

في مجتمع منقسم إلى طبقات متعادية ، تناحرية لا يمكن ان تكون ثمة سياسة فوق الطبقات ، ولا مفاهيم حقوقية ، ولا عقلية ولا اخلاق ولا فلسفة ولا فن ولا أدب خارج الطبقات أو فوق الطبقات . ذلك ما تعلمنا إياه المادية التاريخية . ومنذ اللحظة التي انقسم فيها المجتمع الى طبقات متعادية ، او إلى مضطهدين ومضطهدين، الى مستثمرين ومستثمرين، كان للعقلية (الايديولوجية) ابداً صفة طبقية . ان العقلية السائدة كانت دائماً عقلية الطبقة السائدة اقتصادياً. وعقلية الطبقة السائدة تؤلف بناءً فوقياً للقاعدة الاقتصادية. ومهمتها الدفاع عن مصالح الطبقة الحاكمة، ودعم سيادتها الاقتصادية والسياسية .

قال ماركس وانجلس :

« ان افكار الطبقة الحاكمة هي، في كل عصر من العصور، الافكار السائدة .. والطبقة التي تتصرف بوسائل الانتاج المادي تتصرف في الوقت نفسه ، وبالتالي ، بوسائل الانتاج الفكري ، حتى انه نخضع لها في الوقت نفسه ، وبصورة وسطية ، افكار أولئك الذين هم محرومون من وسائل الفكري .

ان الافكار السائدة ليست إلا التعبير الفكري عن الشروط المادية السائدة[1] .

ان تاريخ المجتمع الطبقي كله يؤكد لنا صحة موضوعة ماركس هذه . فهكذا مثلاً كانت العقلية السائدة في مجتمع الرق هي عقلية طبقة ملاكي العبيد. وهذه العقلية كانت تنظم بشكل سافر عدم التساوي بين الناس وتعتبر العبودية حادثاً طبيعياً . فالإله زوس نفسه ، كما تزعم الاساطير الاغريقية ، هو الذي فرض على العبيد وضعهم كعبيد . وارسطو ، مفكر نظام الرق ومحاميه ، كتب يقول ان الناس فريقان : احرار وعبيد ، وذلك أمر طبيعي ، بل ان من الخير والعدل ان يكون هؤلاء عبيداً . وكان العبيد على عكس ذلك ، يعتبرون العبودية ، غير عادلة يحاربونها. والثورة الشهيرة التي قام بها العبيد تحت قيادة سبارتاكوس مثل من أمثلة هذا النضال .

وفي عصرنا الحاضر يعتبر مفكروا مالكي العبيد الحاليين، اي مفكروا البورجوازية، ان العبودية المأجورة هي الشكل الوحيد الممكن الطبيعي والعادل للتنظيم الاجتماعي وهم كذلك يعتبرون النضال المقدس الذي تقوم به الطبقة العاملة ضد مستثمريها جريمة من الجرائم .

ان عقلية البورجوازية وعقلية البروليتاريا متعارضتان تعارضاً جذرياً وتعارض هاتين العقليتين انعكاس للفروق الجذرية بين وضع كل من هاتين الطبقتين في الانتاج، في النظام

(١) كارل ماركس : المؤلفات الفلسفية - باريس ١٩٣٧ المجلد ٦ ص ١٩٣ .

الاقتصادي الرأسمالي ان البورجوازية تحتكر الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وتستثمر الطبقة العاملة وتؤلف القوة المسيطرة . اما الطبقة العاملة فهي على عكس ذلك، فهي محرومة من وسائل الانتاج ، وتعيش من بيع قوة عملها وتخضع لاستثمار لا يرحم ، وهي ايضاً مضطهدة . ولما كان وضع البروليتاريا ووضع البورجوازية في الانتاج وفي المجتمع متضادين،فان مصالحهما ايضاً متضادة تضاداً جذرياً ولا يمكن التوفيق فيما بينهما .

انهما طبقتان متناقضتان ، ويطابق هذا التناقض تناقض في عقليتي البروليتاريا والبورجوازية . فالعقلية البورجوازية تطابق وضع الطبقة البورجوازية ومصالحها ، والعقلية الاشتراكية يعني الماركسية تطابق وضع البروليتاريا ومصالحها .

ولما كانت البورجوازية هي الطبقة السائدة اقتصادياً فان عقليتها هي السائدة ايضاً في المجتمع الرأسمالي. والافكار السائدة في هذا المجتمع تبرر الملكية البورجوازية لوسائل الانتاج واستثمار العمال وأسس الرأسمالية ومبادئها وتدافع عنها. والبورجوازية تضمن سيادة افكارها وعقليتها، لا باحتكار وسائل الانتاج فحسب، بل باحتكار وسائل نشر الافكار ايضاً (عن طريق المدرسة والكنيسة ودور النشر والمطابع والصحف والراديو والمسرح الخ ..)

أما الطبقات المضطهدة المستثمرة غير المالكة فهي، في النظام الرأسمالي محرومة أو تكاد تكون محرومة من كل هذه الوسائل وعلاوة على ذلك ، ظلت كل حياة المجتمع البورجوازي حقبة

طويلة من الزمن مشبعة فأفكار البورجوازية . وهـذه الأفكار تحشوها البورجوازية في اذهان الطبقات المضطهدة منذ نعومـة اظفارها ، في المدرسة والكنيسة والسينما والصحافة والاذاعـة وبكل تلك المجموعـــة المعقدة من وسائل الضغط الفكري على الجماهير العاملة ، من جانب المستثمرين . ان التقاليد والعـادات تشد أزر العقلية البورجوازية . مع العلم ان للتقاليد الرجعية التي تحمل قدسية العصور ، قوة المحافظة الى درجة مخيفة .

بيد انعقلية الطبقة الحاكمة لا تسود مع ذلك إلا الى اللحظة التي تنضج فيها ، في قلب المجتمع القديم نفسه ، القوى المنتجة الجديدة التي تدخل في نزاع مع علاقات الانتاج القديمـة . والنزاع بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج هو اساس الثورات الاجتماعية الاقتصادي . وعلى صعيد هذه القاعدة الاقتصادية ينشب النضال بين الطبقات وتولد الافكار التقدمية التي تعكس مصالح الطبقات الاجتماعية الجديدة الثورية وحاجاتها . والافكار الجديدة تشق طريقها نحو الجماهير ، وتعبئها وتنظمها ضد النظام الاقتصادي البائد وضد طبقة المستثمرين الحاكمة ، وضد عقلية هذه الطبقة ايضاً . وهذا النضـــال الطبقي ينتهي حتماً إلى تدمير سيطرة الطبقة المستثمرة الرجعية ، بالقوة .

ان التاريخ القديم مصنوع من هذه النضالات الطبقية . ولقد ظهرت في كل حدّتها عندما دخلت قوى منتجة جديدة في نزاع مع علاقات الانتاج القديمة البائدة في مجتمع الرق . والانتقال من مجتمع الرق الى المجتمع الاقطاعي قد أدى الى تغيرات عميقة في نظام المجتمع ، الاقتصادي والسياسي ، وفي ميدان الافكار ، وفي محتوى الوعي الاجتماعي نفسه . والى جانب هذا التحول في

الافكار الاجتماعية ، حدث تحول في العلاقة بين مختلف اشكال الوعي الاجتماعي .

في العهد القديم ، كانت العقلية السياسية تلعب دوراً اساسياً الى جانب الدين ، وكان للفلسفة وللفن مكانة مرموقة ايضاً. اما في عهـــد انحطاط مجتمع الرق ، فقد اصبح الدين هو صاحب المكانة الأولى وساد دون منازع في العـــالم الاقطاعي : سادت المسيحية في اوروبا والبوذية والاسلام في الشرق. ولقد كانت كل اشكال العقلية ، من اخلاق وفن وعلم وفلسفة ، ملحقة بالدين .

يجب ان ندرس تاريخياً دور البورجوازية واهميتها كطبقة من الطبقات ودور واهمية عقليتها في تطور المجتمع. لقد كانت العقلية البورجوازية في زمنها، في معارضتها نظام القنانة وعدم التساوي بين الطبقات والفئات ، تطالب بالمساواة بين الناس جميعاً أمـــام القانون وكان الشعار السياسي عند البورجوازية الصاعدة، شعار الديموقراطية البورجوازية : الحرية والمساواة والآخاء . واليكم ما يقوله لينين في تعريف عقلية البورجوازية الصاعدة التي تعارض عقلية خليفتها ، البورجوازية الهابطة اليوم :

« ... لا بد لنا من ان نلاحظ ان هذه الكلمـــة (البورجوازية : شرح المؤلف) تؤول عندنا غالبـــاً جداً تأويلات خاطئة ضيقة لا تاريخية : فهي تقرن دائمـــاً (دون ملاحظة الفرق بين مراحل التاريخ) بالدفـــاع الجشع عن مصالح الاقلية . ولكن علينا إلاّ ننسى ان كل القضـــايا الاجتماعية كانت تنصب على النضال ضد القنانـــة وبقايا ذلك العهد الذي كان يكتب فيه رجال القرن الثامن عشر (الذي

يعتبرون بصورة عامة قادة البورجوازية) وفي ذلك العهد الذي كان يكتب فيه ديموقراطيونا الثوريون من عام ١٨٤٠ الى ١٨٦٠ . ان العلاقات الاقتصادية الاجتماعية الجديدة كانت في ذلك العهد في حالة جنينية . ولم يكن لمفكري البورجوازية في ذلك العهد هذا الضيق الاناني ، بل كانوا على عكس ذلك في الغرب كما في روسيا ، يؤمنون باخلاص بالغ بالخير العام ويرغبون فيه باخلاص بل باخلاص بالغ ولم يكونوا يرون (والواقع انهم لم يكونوا ، الى حد بعيد ، قادرين على ان يروا) تناقضات النظام الذي كان يلي النظام الاقطاعي »[1] .

اما اليوم ، فان البورجوازية الاحتكارية ومفكريها فانهم ينكرون ما كانوا يعبدونه ويمجدونه في شرخ شباب البورجوازية وليس يخطىء من يقول ان جفرسون ، احد واضعي دستور الولايات المتحدة ، لو عاد إلى الحياة اليوم في اميركا الحاضرة ، لأحيل الى المحاكمة بتهمة النشاط المعادي لأميركا . ان البورجوازية الرجعية تلاحق اليوم أؤلئك الذين يدافعون عن المفاهيم الديموقراطية المعتدلة ، أولئك الذين يناضلون في سبيل احترام الحقوق المسجلة في الدساتير البورجوازية .

وفي الوقت الحاضر ، تدافع البورجوازية الاستعمارية ومفكروها عن مصالح أشد الطبقات جشعاً ، وأكثرها عداء للشعب والوطن انها تبشر بالرجعية وتدافع عنها طول الخط .

ان ماتتصف به عقلية البورجوازية الاستعمارية من طابع رجعي

---

(١) لينين . المؤلفات . المجلد ٢ الطبعة الروسية ص ٤٨٣ .

قد تجلى بقوة خاصة في الحرب الاستعمارية، حرب السلب والنهب، التي شنتها الفاشستية الالمانية والاستعمار الياباني من عام ١٩٣٩ الى ١٩٤٥. لقد تجلى في مآتمها الدموية في أوروبا وآسيا، وفي سياستهما القائمة على استعباد وابادة شعوب برمتها، وفي نظام العبودية الذي كانا يبسطانه، وفي مغامراتهما المجنونة لبسط زعامة العرق الآري، الذي قيل عنه انه العرق المتفوق، على العالم، اي بسط زعامة الاستعمار الالماني. ولقد حكم الاستعمار الياباني ببسط سيادته على آسيا. كما ظهر هذا الطابع الرجعي في الجرائم الدامية التي ارتكبها الاستعمار الاميركي في كوريا، بعنف لم يسمع بمثله من قبل.

وبعد ان مني الاستعمار الالماني والاستعمار الياباني بالهزيمة أمام الجيش السوفياتي، أصبحت البورجوازية في الولايات المتحدة وانكلترا حاملة لواء الرجعية في جميع الميادين.

ان جميع قوى الظلامية والتعصب الأعمى وأشد أنواع الرجعية اغراقاً في الوحشية، مجندة اليوم لمحاربة الماركسية، لمحاربة الشيوعية. والعداء للشيوعية هو المحتوى الأساسي والتوجيه الرئيسي لدى العقلية البورجوازية. كذلك بعث من القبور رفات القرون الوسطى، لكي تصبح اسلحة البورجوازية.

ان علم الكلام (السفسطة)، والصوفية، والنزعة الاكليريكية، والنظريات العرقية والعصبية القومية المجنونة، والصحافة الصفراء المأجورة، والفن البورجوازي المتفسخ الى اقصى الدرجات: تلك هي الأسلحة الفكرية بيد البورجوازية الاستعمارية.

وفي الولايات المتحدة وانكلترا تطور البورجوازية ومفكروها اشد النظريات وحشية ورجعية: كنظرية فيض السكان في الارض

وضرورة ابادة مئات الملايين من الناس «الزائدين» ، وغيرها من النظريات التي تشيد بالصفة « الطبيعية والانسانيــة » للحروب الاستعمارية ، وتعلن ان مبدأ السيادة القومية قد مضى عهده ، وتجهد نفسها لإقامة واثبات «حق» الأمم الناطقة بالانكليزية في سيادة العالم .. الخ .. ان الغاية السياسية من هذه « النظريات » واضحة : انها ترمي الى خداع الشعوب ،وتخدير يقظتها وتهيئة حرب عالمية ثالثة بقصد تأمين السيطرة العالمية للمستعمرين الاميركان. ان رجال الاستعمار في السياسة والفكر يعتبرون شريعة الغاب عماد عملهم اللصوصي . والمستعمرون واذنابهم من المفكرين ، الذين يقترفون الجرائم الفظيعة ضد الانسانية ،لا يستحيون حين يحاولون سترها تحت ستار « حب الانسانية » و «الدفاع عن السلم» .

ان المراوغة والرياء والكذب ، هي المزايا الأساسية للعقلية البورجوازية . ان اشد اعداء الديموقراطية ضراوة يسمون احزابهم « الاحزاب الديموقراطية » واعداء الجمهوريــة يسمون انفسهم « الجمهوريين » واعداء الحرية يتجمعون في « حزب الحريــة » . والثرثرات الكاذبة حول الديموقراطية والحرية والصالح العــام تنفع البورجوازية الاستعمارية في تغطية سياسة النهب والسلب واللصوصية التي تمارسها في الداخل والخارج .

والتعبير النظري عن الكذب والرياء في المجتمع البورجوازي المعاصر إنما هو الفلسفة المثالية المشبعة بالصوفية والظلامية . لقد كانت البورجوازية في ايام شبابها ، تدافع عن المادية والالحاد . فلما اصبح هذا السلاح خطراً عليها تركته منذ امد بعيــــد . ثم اعلنت الحرب على المادية .

ثمة كثير من الفلاسفة والعلماء البورجوازيـين يرون مهمتهم الرئيسية في تعليم الناس ان معرفة العالم معرفة موضوعية صحيحة أمر مستحيل. وهم يوافقون على اخضاع العلم للدين وكذلك على اخضاع العلم لأهداف الحرب وغايات الابادة . ومن الصفات التي تميز العقلية البورجوازية ،صفات العسكرية واللصوصية والاستثمار.

ان الصفة الرئيسية للعقلية البورجوزاية إنما هي الفردية التي هي انعكاس نظام الملكية الخاصة ، انعكاس الاقتصاد البضاعي من النوع الرأسمالي ، انعكاس لأحوال التزاحم.وهذه الفردية قـد حولت المجتمع البورجوازي كله الى ساحة حرب. ومـا اتفق على تسميته روح العمل والاقدام في الرأسمالية قد اشاد به علمـاء الاقتصاد والشعراء ، وعلماء الاجتماع الصحفيون العاملـون في خدمة البورجوازية ، وهو يؤدي إلى نضال الجميـع ضد الجميـع حسب القاعدة القائلة : الانسان ذئب على اخيه الانسان .

ويعتبر مفكرو البورجوازية قوانين عالم الحيوان كقانون طبيعي للحياة الاجتماعية كما يعتبرون علم الحيوان الانجيل الجديد في المجتمع الرأسمالي . والعقلية العرقية هي العقلية الرسمية عند البورجوازية الاميركية الاستعمارية .وعقلية الفاشيستية والعرقية والتعصب الاعمى والكوسموبوليتية هي الأساس المبـدئي لكل السياسة الداخلية والخارجية التي تنتهجها البورجوازية الاميركية . والبورجوازية الاميركية لاتنظم في بلادها فقط بل في جميع البلدان الرأسمالية صليبية رجعية ضد الديموقراطية وضد الطبقة العامـلة ونقاباتها ،وضد حركات التحرر الوطني التقدمية وضد انصار السلام .

ان العقلية البورجوازية الرجعيـة تتعارض نقطة نقطة مع

العقلية الثورية الاشتراكية للطبقة العاملة ، أي مع العقلية الماركسية - اللينينية ، مع الاشتراكية العلمية .

ان العقلية الماركسية ، الاشتراكية ، هي عقلية الطبقة العاملة التي قدر لها ان تحل النزاع بين القوى المنتجة الجديدة في أوج نموها وبين علاقات الانتاج البورجوازية البائدة ، والنزاع بين صفة الانتاج الاجتماعية والشكل الخاص الرأسمالي لتملك حاصلات الانتاج . ولذا ولدت العقلية الاشتراكية ، الماركسية ، من تطور حاجات الحياة المادية للمجتمع .

ان العقلية الاشتراكية ، الماركسية ، بوصفها نهجاً منسجماً كاملاً ، هي التعبير عن وضع الطبقة العاملة ومصالحها ومهمتها التاريخية ، هذه الطبقة التي هي حفارة قبر الرأسمالية وخالقة الشيوعية . انها مذهب ابدعه مفكرو الطبقة العاملة ماركس وانجلس ولينين وستالين ، بفضل بناء نقاد لكل مكتسبات العلم والفلسفة الاساسية ، بفضل تحليل قوانين تطور الرأسمالية وتعميم تجارب الحركة العمالية العالمية تعميماً نظرياً . ونظرة الشيوعية العلمية هي انعطاف جذري في مفاهيم الحياة الاجتماعية وفي دور الطبقة العاملة وجميع الشغيلة .

وهذه النظرية حملها الحزب الماركسي الى الحركة العمالية العفوية فأتاح لها بذلك ان تقود عن وعي النضال في سبيل المصالح الأساسية للطبقة العاملة ، في سبيل ديكتاتورية البرولتاريا في سبيل الاشتراكية .

ان الماركسية هي علم قوانين تطور الطبيعة والمجتمع ، علم ثورة الجماهير المضطهدة والمستثمرة ، علم الاشتراكية في جميع البلدان ، علم بناء المجتمع الشيوعي .

والماركسية اللينينية هي التعبير العلمي عن المصالح الأساسية للطبقة العاملة. وهذا العلم الثوري لا يقف دائماً عند نقطة معينة، بل يتطور ويزداد غنى بتجارب الحركة العاملة الثورية في جميع البلدان وبتجارب بناء الشيوعية الظافر في الاتحاد السوفياتي .

والاساس النظري للعقلية الاشتراكية (الاشتراكية العلمية) إنما هو المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية والاقتصاد السياسي الماركسي — اللينيني .

ان الماركسية—اللينينية، بوصفها عقلية الطبقة العاملة، تنطلق من المبدأ القائل ان الرأسمالية حادث تاريخي انتقالي، ونظام اجتماعي مضى زمنه، وان الرأسمالية الاحتكارية الحالية هي رأسمالية محتضرة متعفنة، وان البورجوازية هي طبقة رجعية غرقت نهائياً في حمأة تناقضات وتناحرات لا تستطيع إلى حلها سبيلاً . ان العقلية الماركسية—اللينينية تنطلق من المبدأ القائل ان الطبقة العاملة وحدها تستطيع ان تحرر جميع الشغيلة من ربقة العبودية الرأسمالية والبؤس وان تضمن لجميع الأمم المساواة التامة في الحقوق في جميع ميادين الحياة. ان الماركسية—اللينينية تدل على الطريق الوحيدة الواجب سلوكها لبلوغ هذه الغاية الكبرى : قلب سيطرة البورجوازية واقامة دكتاتورية الطبقة العاملة من أجل بناء الاشتراكية والشيوعية .

ولقد اكد التطور التاريخي قوة الفكرة الماركسية—اللينينية . واكبر انتصار احرزته الماركسية — اللينينية هو بناء المجتمع الاشتراكي والبدء ببناء الشيوعية في الاتحاد السوفياتي. ولقد غدت

الماركسية ـ اللينينية اليوم العقلية التي تسود عموم الاتحاد السوفياتي بلا منازع . وانفصال عدة بلدان في أوروبا وآسيا عن النظـــام الرأسمالي، وبناء أسس الاشتراكية في بلدان الديموقراطية الشعبية، وانشاء الجمهورية الشعبية الصينية الكبرى، والجمهورية الديموقراطية الالمانية، ونهوض حركة التحرر الوطني في البلدان المستعمرة والتابعة، ونمو نفوذ الأحزاب الشيوعية في البـلدان الرأسمالية : ذلك هو الطريق المجيدة التي قطعتها الافكار الماركسية ـ اللينينيـــة خلال بضع سنوات بعد الحرب .

ان العقلية الماركسية سلاح جبار لتحويل المجتمع الرأسمالي بائد تحويلاً ثورياً الى مجتمع شيوعي . والعقلية الاشتراكية تعطي الأحزاب الشيوعية والعمالية سلاحاً فكرياً في نضالها ضد جميع اعداء الشيوعية . والحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي قـد احرز وما يزال يحرز انتصارات كبرى لأنه يملك في سيره بوصلة دقيقة هي العلم الماركسي اللينيني، علم قوانين التطور الاجتماعي، علم قوانين بناء الشيوعية .

لقد اعلن اعداء الطبقة العامله مرات عديدة ان الماركسية ـ اللينينية قد دحضت وهدمت نهائياً . ولكن هذا المذهب العظيم اكثر حياة اليوم من كل زمن مضى، وهو ما يزال يتطور ويحرز انتصارات جديدة . والانتصار ذو القيمـة التاريخية على قوى الرجعية والفاشستية خلال الحرب العالمية الثانية إنما كان قبـل كل شيء انتصار الجيش والشعب السوفياتيين اللذين تربيـا بروح الماركسية ـ اللينينية .

يشكو بعض مفكري البورجوازيـة الاميركية من انهم في محاربتهم الشيوعية ومفهومها عن العالم ، مضطرون الى استخدام اسلحة فكرية عتيقة أكلها الصدأ . وهم يقولون: اننا نملك قنابل ذرية ودبابات وقنابل واسلحة جرثومية وكيماوية ضد الاتحـاد السوفياتي ، ولكننا لا نملك أسلحة فكرية حقيقية وامثلة عليا تقبلها الجماهير . ان «القيم الفكرية» عند البورجوازية الاميركية قد فقدت عالميتها، كما يقول العالم الاجتماعي الاميركي آنجل . ومن هنا كانت تلك الجهود الجديدة في الفلسفة وعلم الاجتماع وفي ميدان النظريات السياسية والاقتصادية ، ومن هنا كانت تلك المحاولات الجديدة المضحكة لايجاد اسماء جديدة للرأسمالية .

ولكن مهما كانت الأسماء الجديدة التي يلفقها مفكرو البورجوازية لتسمية الرأسمالية ، فان الرأسمالية لا تكف مع ذلك عن ان تكون نظاماً يدب فيه التعفن ، وما تزال عقليتها انعكاساً للجشع الاستعماري والاكاذيب الرأسمالية ، والعنف ، واستعباد الجماهير .

لقـد اعلن سياسي اميركي مشهور هو جون فوستر دالس ان المستعمرين الاميركان « قد بذلوا جهداً قليلاً جـــداً في حرب الافكار » التي تنهزم فيها الولايات المتحدة الهزيمـة تلو الهزيمة . وفي خطاب آخر القاه امام جمعية « الطلاب القدامى في جامعـة برونستون » اضطر دالس الى الاعتراف بأن « الفكر الثوري قد تغلغل في اكثر من نصف الانسانية » .

ومن الواضح جداً ان الاستعمار الاميركي بل معسكر الرجعية الاستعمارية كله، اذا كان يتلقى كل هذه الهزائم في ميدان النضال

الفكري ،فليس ذلك لأن مليارات الدولارات التي انفقها على الحرب الفكرية اقل مما ينفقه على صنع القنابل الذرية والدبابات والأسلحة الجرثومية والكيماوية . فالبورجوازية الاميركية تنفق كثيراً من الاموال لكي تنفث سمومها في نفوس الجماهير. ولكن الافكار التي تسعى لترويجها هي افكار خاطئة ، مناقضة لمصالح الشعوب، من اجل ذلك غلبت الرجعية الاستعمارية في ميدان الحرب الفكرية . ولا يستطيع انسان ان يحمل على محمل الجد ما اتفق على تسميته «نمط الحياة الاميركي» وان يعتبره خير نمط للحياة وان يفرضه على الآخرين بقوة السلاح. ان الشعوب تعرف ما هي اميركا الحقيقية، ما هي ديموقراطية الدولار والذرة، ما هي هذه البلاد التي تحكمها طغمة ارباب الأموال، البلاد التي يرهب فيها العمال ارهاباً وحشياً، البلاد التي يسودها قانون الـ «لنش» (شنق الزنوج) .

وليس بالامكان التأكيد جدياً ان الرأسمالية هي الجنة بينما هي في الواقع جهنم على الشغيلة . وليس بالامكان التأكيد جدياً ان الرأسمالية هي النظام الوحيد الممكن بينما تثبت بلاد الاشتراكية بالوقائع تفوقها على الرأسمالية . وليس بامكان مفكري البورجوازية ان يثبتوا «علمياً» ان الشعب لا يستطيع ان يقود المجتمع والدولة دون البورجوازية ، عندما نجد ان الشعب السوفياتي هو سيد بلاده منذ ٣٦ عاماً وانه قد اصبح مثلاً يقتدي به الشغيلة في عدة بلدان في أوروبا وفي آسيا .

وليس بالامكان كذلك، في عصرنا هذا ، خداع الشعوب ، بلا عقاب بالنظرية الكاذبة التي تقول بوجود العروق «المتفوقة»

وبتفوق العرق الانكلوساكسوني ، ويعجز شعوب الشرق. فلقد اثبتت شعوب الاتحاد السوفياتي التي تنتمي الى شتى الأمم، وخاصة شعوب آسيا الوسطى، انها قادرة على خلق مصيرها التاريخي عن وعي، وعلى ابداع اشكال من الاقتصاد اسمى من الرأسمالية ، وشكل من الدولة اعلى من الشكل الرأسمالي ، وثقافة اشتراكية ارقى من الثقافة الرأسمالية . واليوم يعطي الشعب الصيني العظيم المثال عن خلق اشكال جديدة من الحياة الديموقراطية .

ان هذا كله يفند تفنيداً قاطعاً ويقلب رأساً على عقب نظرية المستعمرين الخرفاء ، « العلمية » المزعومة ، عن العروق الراقية والعروق المنحطة . ان عقلية الاستعمار الاميركي وسياسته التي تقوم عليها يثير ان حقد الشغيلة الشديد على استعمار الولايات المتحدة وعلى « نمط الحياة الاميركي ». وقد كتبت جريدة « شيكاغو تريبون » ان عضواً من مجلس ممثلي ولاية ايلينوا، الجمهوري باسبي، قد القى تقريراً عن رحلة قام بها إلى أوروبا استغرقت ثلاثة اشهر فاعلن قائلاً : « اننا في الطريق إلى ان نصبح اكثر بلدان العالم تعرضاً للاحتقار والكراهية » واضطر باسبي الى ان يعترف بأن بلدان أوروبا الغربية « تحتقر سياستنا الخارجية » ، كما توصل عدد آخر من البرلمانيين الاميركيين الى استنتاجات مماثلة .

ان الحقد الذي توحيه الى الشعوب عقلية الأستعمار الاميركي وسياسته يجبر هذا الاستعمار على البحث عن وسائل جديدة يخفي وراءها جوهره الرجعي . وهذا الشغل الشاغل هو الذي يسير حكام الولايات المتحدة وقواد سياسة العدوان الاستعماري

عندما يجهدون أنفسهم لكي يظهروا امام الشعوب تحت برقع المدافعين عن السلام .

وعلى نقيض عقلية الاستعمار الكاذبة ، نجد ان العقلية الاشتراكية هي التعبير العلمي لمقتضيات تطور الحياة المادية في المجتمع ، لضرورة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية. ان الماركسية كلية الجبروت لأنها صحيحة ، لأنها تعرف ان تدل الانسانية على الطريق التي يجب ان تسلكها وفق قوانين التطور الاجتماعي . ذلك هو مصدر قوة العقلية الاشتراكية التي لا تغلب . ومن هنا كانت قوتها الجاذبية على الملايين من الناس .

وعلى نقيض العقلية البورجوازية الرجعية نجد ان العقلية الاشتراكية ، بمصادرها وجوهرها ودورها الاجتماعي ، عقلية ثورية . والصفة الثورية للعقلية الاشتراكية متأتية من انها لم تثبت فحسب بصورة علمية ان علاقات الانتاج الرأسمالي القديمة لم تعد توافق القوى المنتجة الحالية ، بل لأنها اثبتت كذلك ان طريق الاشتراكية هي الطريقة الوحيدة الصحيحة ، الثورية لأجل حل هذا النزاع. ان العقلية الاشتراكية ثورية لأنها التعبير والاساس العلمي لمهمات جميع الأحزاب التقدمية ان الماركسية هي عقلية الثورة الاشتراكية ،عقلية الجماهير المضطهدة المستثمرة. ولقد كانت ملهمة الطبقة العاملة وطبقة الفلاحين الفقيرة في روسيا أثناء ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ، وكانت ملهمة الشعب السوفياتي من اجل تصنيع البلاد تصنيعاً اشتراكياً ومن اجل

اشاعة التعـــاون في الاقتصاد الزراعي ، ومن اجل إتمام الثورة الثقافية . وتحت راية افـكار الماركسية - اللينينيـــة ، تحت قيـادة الحزب الشيوعي ،بنى الشعب السوفياتي المجتمع الاشترا كي وهو يبني الآن الشيوعية .

٤
دور الأفكار التقدمية في التطور الاجتماعي

يجب ان نبحث عن مصـدر الافكار والمذاهب والنظريات السياسية في شروط حياة المجتمع المادية ، في شروط الوجود الاجتماعي . ان حياة المجتمع المادية هي المعطية الأولى أما الوعي الاجتماعي والافكار والنظريات فهي المعطيات الثانية . إنها انعكاس لشروط الحياة المادية . ولكن هذا لا يعني طبعاً ان الافكار الاجتماعية ، مهما كانت الصورة الفكرية التي تتجلى فيها لا تمارس بدورها ردفعل على تطور شروط الحياة المادية للمجتمع ، على الوجود الاجتماعي ، على قـــاعدة المجتمع الاقتصادية .

ان النقاد البورجوازيين قد قدموا في كثير من الاحيان وما يزالون يقدمون اليوم ضد المادية التاريخية تهمة خرقاء . فهم يزعمون انها تتجاهل دور الافكار في التطور الاجتماعي . وهم يتهمون الماركسية بانها ترد التطور الاجتماعي كله إلى ما لا ندري من عمل آلي للاقتصاد وحده . ان مثل هذه الحجة هي ، من جهة ، ثمرة من ثمار جهل علماء الاجتماع البورجوازيين ، وهي ، من جهة أخرى ، ثمرة من ثمرات تحيزهم الطبقي بوصفهم مزوّرين واعـــين للعلوم الاجتماعية . ان مفكري البورجوازية ، كيما يسهلوا نضالهم ضد

الماركسية ، يبدو قبل كل شيء بتشويه وجهها الحقيقي .

ان المادية التاريخية قد اعترفت دائماً بالأهمية الكبرى للأفكار الاجتماعية والمذاهب والنظريات . بل ان الماركسية قد فعلت اكثر من ذلك . فقد اظهرت للمرة الأولى في تاريخ الفكر الانساني وبشكل علمي ، مدى ما للأدراك الاجتماعي والافكار من تأثير في تطور المجتمع

ومن اجل ذلك وقف ماركس وانجلس ولينين وستالين حياتهم كلها على تحرير البروليتاريا من اغلال العقلية البورجوازية ، وعلى بناء نظرية الشيوعية العلمية بدأب ومثابرة ، وعلى ايقاظ الوعي الاجتماعي وتربيته لدى الطبقة العاملة . ومنذ سنة ١٨٤٤ كتب ماركس يقول :

« من الواضح ان سلاح النقد لا يستطيع ان يحل محل نقد السلاح ، فان القوة المادية لا يمكن ان تقهرها إلا قوة مادية . ولكن النظرية نفسها تتحول هي ايضاً الى قوة مادية حين تتغلغل في الجماهير[١] » .

لقد كان المفهوم المثالي للتاريخ سائداً دون مزاحم قبل ظهور الماركسية . حتى الفلاسفة الذين كانوا يدعون إلى تفسير حوادث الطبيعة تفسيراً مادياً ظلوا مثاليين في مفهومهم عن المجتمع .

عندما وضع ماركس وانجلس فلسفتهما المادية ، خاضا معركة جد حامية ضد المثالية ، وهما ، في نضالهما ضد المثالية ، العدوة الرئيسية

(١) كارل ماركس : المؤلفات الفلسفية ـ المجلد الأول باريس ١٩٢٧ ص ٩٦ .

للنظرية المادية ، اضطرا ، طبعاً ، الى تركيز انتباههما حول ضرورة إقامة النظرية الأساسية للمادية الفلسفية ، يعني الدور الذي يحدد الشروط المادية للحياة الاجتماعية ، وإلى التأكيد ان الوجود الاجتماعي هو الاول وان الوعي الاجتماعي هو الثاني وانه ينبثق منه . أما مسألة دور الوعي الاجتماعي وأهميته في حياة المجتمع ورد فعل الافكار على تطور الحياة المادية للمجتمع وعلى الوجود الاجتماعي ،هذه المسألة التي حُلت حلاً أساسياً في مؤلفات ماركس وانجلس ، فلم تكن عندهما موضوع بحث منهجي .

ولكن انجلس رأى في آخر حياته خطر تأويل الماركسية وتحريفها بروح المادية المبتذلة ، خطر نفي دور الوعي والافكار في التطور الاجتماعي . ولذلك كتب فريدريك انجلس عام ١٨٩٠ في هذا الموضوع يقول :

« إذا كان الشباب يصرون احياناً أكثر مما ينبغي على الناحية الاقتصادية فالخطأ في ذلك ينبغي ان يقع إلى حد ما على عاتق ماركس وعلى عاتقي . لقد كان علينا ان نؤكد المبدأ الرئيسي أمام اعداء ينكرونه ، ولم يكن يتوافر لنا دائماً الزمان والمكان والفرصة للاعتراف للعوامل الأخرى ، التي تشترك في الفعل المتبادل ، بالحقوق العائدة لها . ولكن عندما كنا نستعرض مرحلة تاريخية ما ، أي تطبيقاً عملياً (المادية التاريخية — المؤلف) كانت الأمور تتغير ، ولم يكن من الممكن

ارتكاب أي خطأ. ولسوء الحظ يحدث في كثير من الأحيان ان بعض الناس يعتقدون أنهم فهموا نظرية جديدة من النظريات فهماً تاماً وانهم يستطيعون أن يستعملوها دونما حاجة الى تفصيلاتها وذلك لأنهم أدركوا مبادئها الأساسية وإن لم يكن هذا الفهم غير صحيح دائماً. ولست أستطيع أن استثني من هذا اللوم بعض « الماركسيين » الجدد، فوقعت حين ذاك أمور غريبة [1] ».

وهؤلاء « الماركسيون » الجدد الذين كانوا يزرعون الفوضى والغموض كانوا أناساً من طراز « برنشتاين »، كانوا من الماديين السطحيين. وهم، في حياة أنجلس، لم يكشفوا القناع تماماً عن وجوههم، ولكنهم، بعد موته، شرعوا علانية بتحريف الماركسية بروح المادية السطحية والمثالية، وفي شكل انتهازي.
إن التأويل المادي السطحي، الانتهازي لدور الوعي الاجتماعي، لدور العقلية الاشتراكية والحزب الماركسي والحركة العمالية، قد قاد المحرفين الى طأطأة رؤوسهم أمام عفوية الحركة العاملة، والى التخلي عن النضال ضد العقلية البورجوازية، والى إنكار ضرورة الثورة الاشتراكية وديكتاتورية البروليتاريا. وهذه النظريات المادية السطحية كانت تشكل خطراً كبيراً على الحركة

(١) فوردريك انجلس « حول المفهوم المادي للتاريخ » لندن ٢١ أيلول ١٨٩٠. « الصيرورة الاجتماعية » مجلة عالمية للاقتصاد والتاريخ والفلسفة. المجلد ٣ ـ كانون الثاني الى كانون الاول ١٨٩٧، العدد ٣ آذار ص ٢٣١ - ٢٣٢.

العمالية الثورية .

هذا مع العلم أنه ،بعد ان دخلت الرأسمالية في مرحلة جديدة، هي مرحلة الاستعمار ،بلغت التناقضات الرأسمالية درجة من الحدة لم تعرفها حتى ذاك. لقد كانت الثورة البروليتارية قضية الساعة، ولذا كان لمسألة نشاط الجماهير الواعي أهمية حاسمة. في ذلك العهد، أصبحت النظرية الماركسية المزيفة حول القوى المنتجة التي ينشرها نظريو الأممية الثانية المزعومون ، مصدر خطر خاص. فان انصار هذه «النظرية» كانوا يزعمون أن القوى المنتجة ، بتطورها العفوي، لا تهيء فقط كل المقدمات المادية وكل الشروط للاشتراكيـة بل تؤدي أيضاً بصورة قدرية لامرد لها الى الاشتراكية ، دون مـا حاجة الى نظرية ثوريه » ولا إلى نضال البروليتاريا الطبقي، ولا الى ديكتاتورية البروليتاريا الثورية .

ان « نظرية » القوى المنتجة هذه وجدت تعبيرها الأكمل في الدعاية الاصلاحية حول اندماج الرأسمالية في الاشتراكية اندماجاً سلمياً . ولقد دافع عن « النظرية » في روسيا عملاء البورجوازية في الحركة العمالية مثل « الاقتصاديين » ثم المنشفيك، ودافع عنها بعد قيام السلطة السوفياتية ، الخونة البوخارينيون .

إن «الاقتصاديين» ، ومن بعدهم المنشفيك ، قد بذلوا جهدهم ليثبتوا ان لن تستطيع أية عقلية أن تحول الطبقة العاملة عن طريق الاشتراكية ما دامت القوى المنتجة والاقتصادية يحددان مجرى التطور الاجتماعي. ان الفكرة الأساسية عند «الاقتصاديين» تقول « ان السياسة تتبع الاقتصاد بطواعية » . وهم يرون أن الوعي

الاشتراكي ، أيضاً، ينبثق، آلياً من الاقتصاد. وهم يؤكدون أن الاقتصاد الرأسمالي سيتحول بسلام وعفوية الى اقتصاد اشتراكي، وان الطبقة العاملة تصنع لنفسهاوعياً اشتراكياً، بصورةعفوية ، بفعل الاقتصاد نفسه ، دون ان يكون لها حزب خاص بها .

إن مثل هذه الدعاية كانت تقود الى التبعية وتحكم على حزب البروليتاريابأن يحيابعناء وهزال، وتقضي على دوره تماماً. مع أن النضال ضد القيصرية والرأسمالية فيروسيا كان يتطلب من الطبقة العاملة وحزبها الماركسي نشاطاً كبيراً وعزيمة ثورية كبرى ، وجهداً هائلاً من التنظيم والتقيد بالنظام ودرجة عالية جداً من الوعي والبطولة .بيد ان الوعي والتنظيم لم يكن بالامكان أن يعطيهما للحركة العاملة الاحزب ماركسي يحمل النظرية الاشتراكية الى الحركة العمالية العفوية .

« لا حركة ثورية دون نظرية ثورية [1] » هكذا وضع لينين المسألة في كتابه ما العمل ؟

لقد كان لينين اول من أكد أن النظرية الثورية ، حين ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعمل الثوري ،تشكل قوة جبارة في الحركة العاملة . فقط النظرية الثورية الماركسية تستطيع ان تبعث في الحركة العاملة الثقة بقواها الخاصة وأن تتيح لها معرفة الاتجاه الذي ينبغي لها سلوكه ، وان تسمح لها بادراك الصلة بين مختلف الحوادث التي تحيط بها ،لأنها وحدها تستطيع أن تساعد عملياً ،لا على فهم الاتجاه

---

(١) ف . لينين : المؤلفات الكاملة في جزئين : المجلد الاول . القسم دار النشر باللغات الاجنبية . موسكو ١٩٥٣ . ص ٢٢٧ .

الحالي للحركة الطبقية فحسب، بل كذلك على فهم آفاق تطورها في المستقبل .

لقد أعطى ماركس وانجلس ولينين وستالين الطبقة العاملة نظرية ثورية اشتراكية. فمن ذا الذي كان يستطيع أن يوحد بين هذه النظرية الثورية وبين الحركة العاملة وأن يعطي بالتالي هذه الحركة صفة واعية منظمة؟ فقط حزب ماركسي كان بوسعه ان يفعل وبوصفه الطليعة القائدة للطبقة العاملة ، بوصفه حاملاً الوعي الاشتراكي . هذا الحزب الثوري ، هذا الحزب الجديد النوع ، ونعني به الحزب الشيوعي ، أنشأه لينين في روسيا .

ومن أجل وضع الأسس لحزب ماركسي يكون موحداً وممركزاً ، كان ينبغي انزال الهزيمة بـ «الاقتصاديين» في الميدان الفكري ، ودحض مزاعمهم ، وذلك بكشف النقاب عن وجوههم بوصفهم حملة النفوذ البورجوازي في الطبقة العاملة ، كما كان ينبغي وضع الاسس الفكرية لحزب الطبقة العاملة الماركسي بصورة خلاقة . هذه المهمة قام بها لينين. ففي كتابه ما العمل؟ الذي صدر عام ١٩٠٢ . حلل ، من كل النواحي ، مسألة دور الوعي الاشتراكي في الحركة العمالية كما حلل دور الأفكار التقدمية في تطور المجتمع . وعرض في هذا الكتاب الاسس الفكرية للحزب الماركسي ، للحزب الجديد النوع . وقد أشاد لينين في كتابه هذا بأهمية النظرية الثورية ، والوعي الاشتراكي ، والحزب الماركسي بوصفه القوة القائدة للحركة العمالية . كما أثبت فيه اثباتاً رائعاً هذه الموضوعات الاساسية في الماركسية التي ترى ان الحزب الماركسي إنما هو انصهار الحركة العمالية في

الاشتراكية وان الوجود الاجتماعي يحدد الوعي الاجتماعي .

إن مسألة العلاقات بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي لها مظهران : من جهة ، مسألة الأفكار والمذاهب والنظريات ومنشأها ، ومن جهة أخري ، مسألة دور الأفكار والمذاهب والنظريات وأهميتها .

ان الأفكار والمذاهب هي ثانية ، من حيث منشأها ، انها نتاج شروط الحياة المادية في المجتمع . ان حياة المجتمع الفكرية هي انعكاس الوجود الاجتماعي وشروط الحياة المادية . والأفكار والمذاهب والنظريات ، مع كونها انعكاساً لشروط الحياة المادية ، تمارس ايضاً رد فعل على تطور حياة المجتمع المادية ، على الوجود الاجتماعي . وأهمية الأفكار في الحياة الاجتماعية وفي التطور الاجتماعي ودورها كبيران جداً .

والأفكار والنظريات ذات أنواع مختلفة : فمنها القديم ، المهترىء ، الرجعي ، ومنها الجديد ، التقدمي ، الطليعي .

فالأفكار القديمة والمذاهب القديمة والنظريات القديمة المتداعية تخدم مصالح القوى الاجتماعية التي تجاوزها التاريخ. وهي تلعب دور اللجام في تطور المجتمع وتعرقل سيره إلى امام . والصفة الرجعية لهذه الأفكار والنظريات ظاهرة جداً في أفكار البورجوازية الاستعمارية الحالية ونظرياتها .

ان الأفكار البورجوازية الاستعمارية ونظرياتها هي قسم من البناء الفوقي للقاعدة الرأسمالية . وعلى الرغم من ان هذه القاعدة قد حكم عليها التاريخ بالموت ، فما تزال هذه الأفكار وتلك النظريات تجهد للدفاع عن هذه البورجوازية وللابقاء عليها . ان المستعمرين

ينفقون مليارات الدولارات لنشر أفكارهم الرجعية . ان الافكار العتيقة والنظريات العتيقة لها صفة رجعية لأنها تدافع عن أساس بائد وتقف حجر عثرة في طريق حل المهمات التي يضعها تطور حياة المجتمع المادية .

أما الافكار الجديدة والنظريات الجديده ، فانها بالعكس ، تلعب دوراً تقدمياً ، إن مهمتها مساعدة تطور المجتمع ، مساعدة سيره الى امام . والافكار الجديدة والنظريات الجديدة لاتهبط من السماء ولكنها تولد من المهمات التي يضعها تطور حياه المجتمع المادية . انها تشكل شرطاً من الشروط الضرورية للانتقال الثوري من النظام الاجتماعي البالي الى نظام جديد متقدم .

ولكي تتم الثورة ، يجب أولاً ان توجد المقدمات المادية ، وان تتوافر الشروط الموضوعية ، وأن تبلغ الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية حد النضج . ولكن علاوة على هذه الشروط الموضوعية للثورة ، يجب كيما تتم الثورة بنجاح ، ان تضم الى هذه الشروط الموضوعية عوامل ذاتية هي قابلية الطبقة الثورية لحل هذه التناقضات . وهذا يتعلق بدرجة تنظيم الطبقة التقدمية ، بدرجة وعيها وروحها الثورية ، بقدرتها على اجتذاب الجماهير الشعبية الواسعة وراءها .

والشروط الموضوعية ، المادية والاقتصادية ، للانتقال من النظام القديم الى النظام الجديد ، ليست كافية لأن الطبقة المسيطرة التي تجاوزتها الحياة ، تدافع عن النظام القديم معتمدة على كل جبروت بنائها الفوقي ، على جهاز دولتها (من جيش وشرطة وسجون) ،

معتمدة كذلك على التأثير في الجماهير بكل الوسائل الفكرية . وما يعقد نضال طبقة البروليتار ، ضد البورجوازية ، انما هو ، على وجه الضبط ، كون الطبقات المستثمرة المنحطة ، لا تحافظ فقط على سيطرتها بواسطة العنف والقمع الجسدي السافر ، الذي تمارسه الدولة ، بل تحافظ أيضاً على سيطرتها بواسطة ما تمارسه من ضغط فكري على الجماهير ، ساعية جهدها لان تنفث في نفوس العمال سم عقليتها الرجعية . ولذا إذا لم يتم القضاء على نفوذ الافكار القديمة ، إذا لم يتم نشر الافكار الجديدة التقدمية بين الجماهير ، فمن المستحيل حشد قوى الطبقة التقدمية وتنظيمها وتعبئتها في سبيل تحويل النظام الاجتماعي الرجعي الذي اجتازته الحياة ، تحويلا ثورياً .

ان أهمية الدور المنظم والمعبىء والثوري للافكار والنظريات الجديدة تبدو جلية ، عند النظر الى مثال الماركسية — اللينينية . فان الماركسية — اللينينية ، — التي ولدت في قلب الرأسمالية نفسه ، على أساس المهمات الجديدة التي وضعها تطور حياة المجتمع المادية (بالنظر الى أن علاقات الانتاج الرأسمالي القديمة لم تعد توافق صفة القوى المنتجة) — ، قد حملها الحزب الماركسي الى الحركة العمالية العفوية فتغلغلت في ضمير الطبقة العاملة الروسية وعبأتها ونظمتها .

والطبقة العاملة الروسية ، المتسلحة بالماركسية — اللينينية ، المتسلحة بالنظرية التي صاغها لينين حول الثورة البروليتاريـة وديكتاتورية البروليتاريا ، هذه الطبقة العاملة هبت ، تحت قيادة طليعتها ، الحزب الشيوعي ، لشن الهجوم على الرأسمالية ، ودمرت الأساس الرأسمالي القديم ، وأنشأت أساساً اشتراكياً جديداً ،

أنشأت نظاماً اجتماعياً جديداً ، هو الاشتراكية .

ان ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى تشكل انعطافاً جذرياً في التاريخ . انعطافاً في مصير الانسانية ، وقبل كل شيء في مصير الشعوب التي تكوّن الاتحاد السوفياتي . وهي تعبر عن انتصار الاشتراكية ، عن انتصار العقلية الاشتراكية على العقلية الرأسمالية عن انتصار اللينينية على الانتهازية .

لقد حررت ثورة أكتوبر من نير الاستثمار ملايين الشتيلة في الاتحاد السوفياتي ، لقد أيقظتهم الى المبادرة التاريخية والعمل السياسي لقد وضعت اسس العصر العظيم ، عصر بناء المجتمع الاشتراكي على مبادىء جديدة بالنسبة الى جميع التكوينات (الانظمة) الاجتماعية السابقة .

ان ما قبل تاريخ الانسانية ينتهي بانتهاء الرأسمالية بصفتها تكوينا (نظاماً) اجتماعياً . ففي اكتوبر ١٩١٧ ، ابتدأ عهد جديد في تاريخ العالم . وبدت الصفة الاولى من تاريخ انساني حقاً خلقته الجماهير الشعبية عن وعي .

ان المجتمع الاشتراكي هو أول مجتمع بناه الناس عن وعي وحرية والقول انه بني بحرية لا يعني ان الضرورة التاريخية قد الغيت . ان أعداء الاشتراكيه يجهدون انفسهم للافتراء على ثورة أكتوبر بكل الوسائل حين يصورونها كأنها عهد سيادة الفوضى ، كأنها من عمل الجماهير العمياء ، المنطلقة من عقالها ، التي تهدد بأبادة الحضارة والثقافة . ولكن الامر على خلاف ذلك. فاذا كانت كل ثورة اجتماعية في الماضي كانت تقتضي تحرك الجماهير وظهورها في

معترك الحياة السياسية الواعية ، فان ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى قد بيّنت بوضوح مقدار ما كان يتمتع به الملايين والملايين من الناس وعلى رأسهم البروليتاريا وطليعتها الحزب الشيوعي ، من نضج سياسي ووعي وتنظيم .

في كل ثورات الماضي ،وخاصة في جميع ثورات البورجوازية ، كانت الجماهير التي تشترك في هذه الثورات والزعماء الذين يقودونها ، ضحية وهم كبير ، الى حد بعيد ، اذا لم يكونوا قادرين على السمو الى ادراك علمي لطبيعة الثورة وقوانينها وقواها المحركة وغاياتها .

ولقد بين ماركس في كتابه ١٨ بروميز للويس بونابرت Le 18 Brumaire de Louis Bonapare ان قواد الثـــورات البورجوازية السابقة كلها كانوا يستعيرون مثلهم العليا من الماضي . ان زعماء الثورة البورجوازية الانكليزية في القرن السابع عشر قد بحثوا عن أمثلة وهمية في العهد القديم . وزعماء الثورة البورجوازية الفرنسية في القرن الثامن عشر بحثوا عن مصادر وحيهم في التقاليد الاسطورية للجمهورية الرومانية .

أما الثورة الاشتراكية فانها تستمد الهامها ، لا من الماضي ، ولكن من المستقبل :

«انها لا تستطيع أن تبدأ بنفسها قبل ان تصفي نهائياً كل خرافة ووهم حيال الماضي . ان الثورات السابقة كانت في حاجة الى ذكريات التاريخ لكي تخفي عن نفسها محتواها . أما ثورة القرن التاسع عشر (والمقصود هنا الثورة الاشتراكية — المؤلف.) فينبغي لها ان تترك الموتى يدفنون موتاهم لكي تحقق غرضها الخـــاص . بالأمس كانت العبارة تفيض عن المحتوى أما الآن ، فإن المحتوى هـــو الذي

يفيض عن العبارة .[1] »

ان أحلام رجال الثورة البورجوازية كانت ابعد من الانطباق مع الواقع الذي ولدته الثورة التي صنعوها . فلقد صور المفكرون والفلاسفة والشعراء والصحفيون والناشرون ، ثورة ١٧٨٩ البورجوازية وكأنها بعث حقيقي للعقل ، كأنها اشراقة الشمس الرائعة ، كأنها مهبط الحق والعدل والحرية والمساواة والأخوة والسعادة والازدهار العام . وهكذا كانوا يرونها في أحلامهم . ولكن الواقع هو ان الثورة البورجوازية في فرنسا لم تؤد إلا الى احلال شكل جديد من الاستثمار محل شكل قديم ، الى استبدال الشكل الاقطاعي بالشكل الرأسمالي . واذا الحرية تتكشف عن حرية الاستثمار ، وإذا المساواة تصبح مساواة بين المتخمين والجياع ، بين المستثمرين والمستثمرين ، وإذا الأخوة حرب لا هوادة فيها بين الرأسماليين والعمال ، وإذا العدالة تمسخ تحت ملامح عدالة بورجوازية مرتشية موضوعة لحماية الرأسمالية . وتلف هي صفات الثورات البورجوازية كلها .

وليس الامر كذلك بالنسبة لثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى . ان النظريات والأهداف ، والمهام والشعارات ، والراية التي حاربت تحتها الجماهير ، الشعبية ، ان ذلك كله قد اتفق اتفاقاً تاماً مع النتيجة التي بلغتها : إقامة ديكتاتورية البروليتاريا وبناء الاشتراكية .

لقد أكدت ثورة أكتوبر الاشتراكية النظرية اللينينية — الستالينية

---

(١) كارل ماركس ١٨ برومير للويس بونابرت . دار النشر الاجتماعية الاممية باريس ١٩٢٨ - ص ٢٦ .

حول دور التعبئة والتحويل الذي تضطلع به الأفكار التقدمية والنظريات التقدمية. فان النظرية اللينينية للثورة البروليتاريا قد أتاحت للحزب الشيوعي والطبقة العاملة في الاتحاد السوفياتي أن يسيرا على هدى من أمرهما وأن تكون لهما آفاق واضحة وثقة مطلقة بانتصار الاشتراكية .

وهذه النظرية الجديدة اللينينية، للثورة الاشتراكية بدأت نقطة انطلاقها من قانون التطور الاقتصادي والسياسي غير المتساوي للرأسمالية في مرحلتها الاستعمارية . وقد استنتج لينين من هذا القانون ذلك الاستنتاج العبقري القائل بإمكان انتصار الاشتراكية اولا في بلد واحد واستحالة انتصار الاشتراكية في جميع البلدان في وقت واحد. ولقد حطمت النظرية اللينينية عن الثورة البروليتارية المذاهب الجامدة التي كانت تنادي بها الأممية الثانية والتي تقول أن الاشتراكية ستنتصر أولاً في أوروبا الغربية ، في البلدان الأكثر تطوراً من الناحية الصناعية ، حيث تشكل البروليتاريا أكثرية السكان وحيث قامت الديموقراطية البورجوازية منذ عشرات السنين. ولقد دحضت النظرية اللينينية هذه المذاهب الجامدة وأصبحت سلاحاً فكريا في يد الطبقة العاملة ورسمت لها بوضوح طريق النصر. ان النظرية اللينينية عن الثورة الاشتراكية هي اكتشاف من أعظم اكتشافات العلم الماركسي .

وعلى هدى هذه النظرية، استطاع الحزب الشيوعي ان يجمع العمال والفلاحين والشغيلة، ان يعطيهم شعارات واضحة للنضال، وان يسلحهم ويعبئهم للمعركة ضد الرأسمالية . وقد أكد مجرى

حوادث الثورة تنبؤات لينين حول امكان انتصار الثورة الاشتراكية في روسيا قبل انتصارها في أوروبا الغربية. كما وان مجرى حوادث الثورة الاشتراكية في روسيا بدد « نبؤات الترتسكيين حول استحالة انتصار الاشتراكية في بلد واحد »، ومجرى حوادث الثورة دحض كل العقلية المعايدة للينينية، عقلية الخونة المارقين.

لقد كانت النظرية اللينينية عن الثورة الاشتراكية تحدياً لجميع أعداء الاشتراكية. لقد قطعت كل صلة لها بالتقاليد والاوهام والأحكام السابقة الراسخة في الاذهان ووجهت الحزب والطبقة العاملة توجيها صحيحاً نحو الثورة الاشتراكية.

ولولا النظرية اللينينية عن الثورة البروليتارية، لكان انعدم التنظيم في صفوف الحزب الشيوعي والطبقة العاملة، ولكانت الثورة الاشتراكية فقدت قيادتها، ولكان انتصر أعداء البروليتاريا. ولقد تجلت النظرية اللينينية عن الثورة البروليتارية بصورة ملموسة في الشعار الكفاحي القريب من مفهوم الجماهير: « كل السلطة للسوفيات! ». ان شعارات الحزب الشيوعي قد أيقظت الروح الثورية عند الجماهير ووجهت غضبها ضد أعداء الثورة.

لقد طور لينين النظرية الماركسية خلال عدة سنوات من النضال الفكري والسياسي ضد أعداء الماركسية، فهيأ بذلك انتصار اكتوبر ١٩١٧. ولقد طور الماركسية، بدأب، وانتظام، آخذ بعين الاعتبار، في آن واحد، المرحلة الجديدة لتطور الرأسمالية العالمية وتجربة الحركة العمالية، والاشكال الجديدة الفذة لتطور روسيا الاقتصادي والسياسي.

تعلمنا الماركسية – اللينينية أنه كلما عكست النظرية بدقة مقتضيات تطور الواقع الاجتماعي ، أصبح دورها المنظم والمحول أكبر في تطور المجتمع. والنظرية اللينينية عن الثورة الاشتراكية كانت تستجيب للمقتضيات الاقتصادية التي كانت تبرز في المجتمع. ولقد غدت قوة بتغلغلها بين الجماهير .

ان الظروف التاريخية الملائمة والحقيقة العميقة لأفكار اللينينية وقيادة الحزب الشيوعي الحكيمة ، الستراتيجية التاكتيكية ، وكفاءته بالقاء شعارات قادرة على قيادة الجماهير الى الثورة الاشتراكية والى الهجوم على الرأسمالية ، تلك هي العوامل الموضوعية والذاتية التي أتاحت انتصار ثورة أكتوبر . وجعلت من الممكن إقامة الحكم السوفياتي ، ونفحته قوة الصمود بوجه جميع هجمات الأعداء من الداخل والخارج .

لقد أحدثت ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى كذلك ثورة في عقلية الطبقة العاملة. لقد سجلت انتصار العقلية الاشتراكية على العقلية البورجوازية ، وانتصار اللينينية على الانتهازية والاصلاحية. ولكن ذلك لا يعني أبداً أن الملايين والملايين من الشغيلة قد تحرروا تماماً ، غداة الثورة ، من مفاهيم المجتمع البورجوازي العتيق وعاداته وأخلاقه . فقط بفضل دكتاتورية البروليتاريا وبهذه الديكتاتورية يمكن القيام بتربية الجماهير تربية شيوعية. وفي هذا الميدان يعود الدور الرئيسي إلى الحزب الشيوعي الذي هو في آن واحد قائد الشعب ومربيه ومنظمه .

٩

دور العقلية الاشتراكية في بناء المجتمع الاشتراكي

ان مصاعب بناء المجتمع الجديد الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي كانت تنشأ على الخصوص من ان روسيا كانت قبل الثـــورة بلداً متأخراً نسبياً من الناحية التكنيكية والاقتصادية وان بلاد السوفيات كانت البلد الوحيد الذي يبني الاشتراكية وسط بيئـــة رأسمالية معادية . ولم تكن شعوب الاتحاد السوفياتي قادرة على الانتفاع بالتجربة العملية في بناء الاشتراكية عند أي شعب من الشعوب ، لأن هذه التجربة لم تكن قد تمت بعد. وقد كانت شعوب الاتحاد السوفياتي أول من بنى المجتمع الاشتراكي الجديد . أما اليوم ، فان بلدان الديموقراطية الشعبية تعتمد على تجربة الاتحاد السوفياتي، وذلك ما يسهل عليها كثيراً اداء مهمتها .

ان تحقيق الوحدة الفكرية والتنظيم لدى الجماهير الشعبية في البلد الأول الذي سار في طريق الاشتراكية ، وارشاد هذه الجماهير الى طريق بناء الحياة الجديدة والى وسائل هذا البناء ، ووضع هدف واضح يوافق مصالحها الاساسية ، وايحاء القوة والثقة بالنصر ، تلك كانت مهام العقلية الاشتراكية . وكان الحزب الشيوعي ملزماً بان يكون له برنامج واضح ومعرفة علمية بطرق النضـــال ووسائله في سبيل الاشتراكية كيما يستطيع الشغيلة تحقيق هذا البناء دون ان يتخبطوا فيه خبط عشواء ، وكانتشاء الصدف ، بل بخطى مطمئنة واثقة حقاً. وكان المقصود تبيان ان انتصار الاشتراكية امر ممكن واكيد.

هذا الوضوح في عرض الأهداف والسبل والوسائل ، انما اعطته النظرية اللينينية حول امكان انتصار الاشتراكية في بلد واحد ، اعطاه

برنامج التصنيع الاشتراكي وكهربة البلاد الذي وضعه لينين ، اعطاه برنامج لينين التعاوني الشهير ،وتعريفه الاسس لثقافة ثورية .

ان الحزب الشيوعي ولجنته المركزية وعلى رأسها لينين العظيم ومتمم عمله بعد موته ، ستالين ، قد قادوا الجماهير الشعبية ، على هدى هذا البرنامج ، في طريق بناء الاشتراكية .

ان انتصار الاشتراكية في روسيا ، انما هو انتصار سياسة الحزب الشيوعي ،هذه السياسة التي هي أساس حياة المجتمع السوفياتي . فإن الحزب قد هزم كل التيارات الفكرية والبورجوازية المعادية للاشتراكية ، في غمرة نضال سياسي وفكري لا هوادة فيه خاصة تحت راية اللينينية ضد جميع أعدائه ، ضد التروتسكيين الزينوفييفيين والبوخارينيين والقوميين المتعصبين من كل شاكلة وطراز . وفي ذلك كان الشرط الضروري لبناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي ، للانتار على النظريات البورجوازية والبورجوازية الصغيرة وعلى النظرية الانتهازية حول العفوية .

ولو لم يتم النصر على النظريات والافكار المعادية ، ولو لم تتم الغلبة على النظريات المعادية للشعب وللنظرية اللينينية ،لكان انتصار الاشتراكية ضربا من المستحيل .

ان انتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي هو الدليل الأوضح والأكثر اقناعاً على الدور المعبىء والمنظم والمحول الذي تضطلع به النظرية الثورية والحزب الثوري والعنصر الواعي في التطور الاجتماعي .

والنظرية الماركسية الثورية في النظام الاشتراكي تسلح الحزب والجماهير الواسعة من الشغيلة الذين يبنون الشيوعية ، بمعرفة قوانين

تطور المجتمع. وبذلك تتيح لهم فهم الحوادث التي تجري في أعماق الحياة الاجتماعية وتعطيهم امكان التنبؤ بمجرى الحوادث وامكان توجيه نشاطهم وكل مجرى الحياة الاجتماعية حسب القوانين الموضوعية وبالاعتماد على هذه القوانين .

ان انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية واقامة دكتاتورية الطبقة العاملة هما انتصار العقلية الماركسية الاشتراكية . ولكن بعض عناصر الانتاج الصناعي الصغير والاقتصاد الرأسمالي الخاص تبقى الى جانب النظام الاقتصادي الاشتراكي أثناء الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية حتى انتصار الاشتراكية في جميع ميادين الاقتصاد الوطني . أن العناصر الرأسمالية في داخل البلاد ، التي كانت وما تزال تستند الى أساس واسع في الانتاج البضاعي الصغير والتي كانت تعتمد على البورجوازية العالمية ، قد قامت بنضال لا رحمة فيه ضد الاشتراكية فقد كان الانتاج التجاري الصغير يولد الرأسمالية بصورة عفوية ويؤدي الى بعث الحياة في العناصر الرأسمالية وعقليتها المعادية للاشتراكية . والأساس الاقتصادي للعقلية الاشتراكية ، في مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، انما كان النظام الاشتراكي الذي كان يحدد الاقتصاد. وعندما انتصرت الاشتراكية في كل ميادين الاقتصاد الوطني ، وعندما تم القضاء على الطبقات المستثمرة ، أصبح للعقلية الاشتراكية أساس مادي مكين في القاعدة الاشتراكية التي غدت السائدة دون منازع ، وتغلغلت العقلية الاشتراكية بصورة جدية في إدراك الناس. وكلما أظهر النظام الاشتراكي تفوقه على النظام الرأسمالي في جميع الميادين ، أصبح دور العقلية الاشتراكية وفعلها في إدراك الناس أكثر فعالية وثورية

قبل قيام دكتاتورية الطبقة العاملة كانت العقلية الاشتراكية تجد في الحزب الشيوعي وأوعى الشغيلة الذين كانوا يسيرون وراءه سندها وانشط من حمل لواءها. أما بعد انتصار الثورة الاشتراكية فقد غدت العقلية الاشتراكية تنتقل الى ادراك الملايين من الناس، لا عن طريق منظمات الحزب فقط، بل ايضاً عن طريق الشبكة الواسعة من المنظمات التربوية والثقافية في الدولة الاشتراكية وعن طريق منظمات الشغيلة العديدة.

ان ثورة اكتوبر الاشتراكية وبناء الاشتراكية قد طورا العقلية الاشتراكية واغناها بمؤلفات لينين العبقرية ومؤلفات متممه ستالين ومؤلفات رفاقهما بالسلاح وهذه المؤلفات، وكذلك مقررات الحزب الشيوعي، غنية بالتجارب الهائلة التي قام بها الملايين من بناة الاشتراكية وبتجارب الحزب الذي يقود هذا البناء وبتجارب نضال الحزب ضد اعداء اللينينية في داخل البلاد وعلى النطاق العالمي.

ان العمل التربوي الذي يقوم به الحزب الشيوعي أساسه الفكرة الرئيسية القائلة ان الوجود الاجتماعي يحدد الوعي الاجتماعي. فالناس هم الذين يحولون الوعي الاجتماعي. فتحت قيادة الحزب، حول الناس السوفياتيون أنفسهم، حولوا ادراكهم نفسه، وطبيعتهم نفسها، واخلاقهم، فيما كانوا يحولون العالم، فيما كانوا يحولون وجودهم الاجتماعي. ان سيماء الشعب السوفياتي، الفكرية، الاشتراكية، الجديدة قد تكونت في غمرة معارك اوكتوبر، وإبان الحرب الأهلية، وفي معمعان النضال من أجل تصنيع البلاد الاشتراكي ومن أجل اشاعة التعاون في الزراعة، وفي المعارك ضد الغزاة الفاشست زمن

الحرب . لقد كان الحزب الشيوعي المربي العظيم لعشرات الملايين من الناس وباني نفوسهم . وتربية الجماهير تربية شيوعية ، لم يقم بها الحزب بصورة مجردة ، بل بربطها ربطاً لا تنفصم عراه بحل المهمات العملية لبناء الاشتراكية والشيوعية .

في اقل من ١٥ سنة حقق الاتحاد السوفياتي قفزة هائلة ، منتقلاً من اقتصاد وتكنيك متأخرين الى الاقتصاد الاشتراكي الأكثر تقدماً واطراداً ، إلى الاقتصاد الذي يعتمد على اروع مكتسبات العلم والتكنيك . ولم يكن بالمستطاع تحقيق مثل هذا التقدم إلا بشرط إثارة اهتمام الجماهير الشعبية اهتماماً بالغاً حماسياً بالتصنيع وإشاعة التعاون ، وتطبيق الفن العلمي الجديد . الأمر الذي كان يتطلب درجة عالية من الوعي عند الجماهير التي رباها الحزب الشيوعي بروح العقلية الاشتراكية .

ان العقلية الاشتراكية تربي في الناس السوفياتيين عواطف الحب والاخلاص لشعبهم ، وروح الاعتزاز بوطنهم . لقد كان الشعب السوفياتي اول شعب حطم الرأسمالية وابدع مجتمعاً جديداً ، اشتراكياً ، دالاً بذلك الانسانية جمعاء على طريق التحرر من العبودية الرأسمالية .

ان الناس السوفياتين فخورين لأن وطنهم يجسد امل الانسانية التقدمية جمعاء ولأنه قلعة النضال في سبيل السلام ، في سبيل الديموقراطية ، في سبيل الاشتراكية ، في سبيل المستقبل الوضاء لجميع الشعوب . إن انظار الشعوب في جميع البلدان تتجه نحو الاتحاد السوفياتي الذي يلهم الشعوب في نضالها ضد العبودية الرأسمالية ، وضد اللصوصية والبربرية الاستعماريتين .

لقد انتصرت في الاتحاد السوفياتي افكار الوحدة الاخلاقية والسياسية والتآخي والصداقة بين الشعوب ، افكار الوطنية السوفياتية . وتلك هي القوى المحركة الجبارة لتطور المجتمع السوفياتي .

ان الصداقة بين الشعوب ، إنما هي ينبوع من ينابيع قوة الدولة السوفياتية التي لا تغلب .

ان قوة الوطنية السوفياتية كامنة في كونها – على خلاف الوطنية البورجوازية المزيفة المبنية على الأوهام الراسخة العرقية والقومية – ،مبنية على اخلاص الشعب وامانته للوطن الاشتراكي ، وعلى الصداقة الأخوية بين شغيلة جميع الأمم في الاتحاد السوفياتي ، وعلى احترام شعوب العالم كلها ، صغيرها و كبيرها . وفي الوطنية السوفياتية تتحد اتحاداً منسجماً التقاليد الوطنية لشعوب الاتحاد السوفياتي والمصالح الحيوية المشتركة لجميع شغيلة الاتحاد السوفياتي .

ان الوطنية السوفياتية تحيا بروح الصداقة والاخوة بين الشعوب ، بروح احترام حرية الشعوب جميعاً واستقلالها . ان الوطنية السوفياتية تجمع أمم الاتحاد السوفياتي العديدة في عائلة واحدة متآخية من الشعوب ، في عائلة واحدة قوامها مبدأ التعاون والمساعدة المتبادلة . ولذا كانت الأممية البروليتارية جزءاً لا يتجزأ من العقلية الاشتراكية . والأممية البروليتارية إنما هي التضامن الأممي بين شغيلة جميع البلدان .

ان العقلية الاشتراكية تطور الأممية البروليتارية أي انها تطور عقلية مساواة وصداقة وأخوة بين الشعوب . ولقد كانت السياسة الوطنية اللينينية – الستالينية ، المبنية على مبدأ المساواة

بين الأمم والعروق والشعوب ، شرطاً من الشروط الفكرية لانتصار الثورة الاشتراكية ولبناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي.

ان انتصار الاشتراكية هو انتصار عقلية الأممية الاشتراكية على التعصب القومي البورجوازي. وشعار الأممية الاشتراكية : «يا عمال العالم ، اتحدوا ! » هو شعار مقدس بنظر الناس السوفياتيين .

لقد اصبح المذهب الماركسي – اللينيني حول المساواة والصداقة بين الشعوب ، لأول مرة في التاريخ ، واقعاً حياً في المجتمع الاشتراكي ، في الدولة السوفياتية المتعددة القوميات . تعلمنا الماركسية – اللينينية ان شعباً آخر لا يمكن ان يكون حراً . وقد كتب ستالين يقول :

« ... ان ثورة اكتوبر قد حطمت سلاسل الاضطهاد القومي والاستعماري ، وحررت منها جميع الشعوب المضطهدة ، بلا استثناء ، القاطنة في دولة واسعة . ان البروليتاريا لا تستطيع ان تتحرر إذا لم تحرر جميع الشعوب المضطهدة. والصفة المميزة لثورة اكتوبر ، هي انها حققت في الاتحاد السوفياتي هذه الثورات الوطنية وثورات المستعمرات ، لا تحت راية الحقد القومي والخصومات بين الأمم ، بل تحت راية الثقة المتبادلة والتقارب الأخوي بين العمال والفلاحين القاطنين الاتحاد السوفياتي ، لا باسم القومية بل باسم الأممية[١] » .

لقد مزق انتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي إرباً إرباً النظريات الرجعية والعرقية والقومية حول ما يزعمون من عروق

---

(١) ي . ستالين . المسائل اللينينية ، دار النشر باللغات الأجنبية . موسكو ١٩٥١ – ص ٢٥٨ – ٢٥٩ .

متفوقة وعروق منحطة . والشعوب العديدة التي تقطن الاتحاد السوفياتي وتنتمي الى عروق مختلفة قد تحررت من نير الرأسمالية . وتحت قيادة الحزب الشيوعي اثبتت اثباتاً رائعاً انها قادرة على المبادرة التاريخية في خلق اشكال جديدة اشتراكية في الحياة ، واشكال جديدة اشتراكية في الدولة ، واشكال اشتراكية جديدة في الثقافة . وهكذا اظهرت العقلية الاشتراكية حول المساواة والصداقة بين الشعوب كل قوتها .

ان عقلية المساواة والصداقه بين الشعوب ، التي تسود الاتحاد السوفياتي ، هي نبع من ينابيع القوة في المجتمع الاشتراكي . ومن اهداف التربية الشيوعية ، المزيد من تقوية وتطوير الصداقة بين الشعوب وتربية الناس بروح الوطنية السوفياتية والحب والاخلاص للوطن السوفياتي ، بروح الحقد على اعداء الاشتراكية ، وايحاء الاهتمام لدى الجميع بتعزيز الدفاع عن البلاد ضد كل محاولة عدوانية يقوم بها المستعمرون .

ان بقايا التعصب القومي لا تتلائم مع العقلية اللينينية للأممية . وهذه البقايا تضعف الوحدة الاخلاقية والسياسية عند الشعوب ، كما تضعف الصداقة فيما بينها . والمحيط الاستعماري يبذل جهده لبعث البقايا البورجوازية والقومية في ضمير الناس . ولذا خاض الحزب الشيوعي على الدوام وما يزال يخوض نضالاً لا هوادة فيه ضد عقلية التعصب القومي بغية التغلب نهائياً على بقايا التعصب القومي في ضمير الناس السوفياتيين .

ان وحدة المجتمع السوفياتي الاخلاقية والسياسية ، والصداقة بين الشعوب ، والوطنية السوفياتية ، تلك هي القوى الجديدة المحركة

لتطور المجتمع الاشتراكي . ولقد أصبحت ممكنة بفضل انتصار الاشتراكية .انها أمور يرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ويمارس كل منها على الآخر تأثيراً متبادلاً ، وتؤثر جميعاً في مجرى تطور الاتحاد السوفياتي ، السياسي والاقتصادي والثقافي .

ان العمل الفكري بين الجماهير واجب من أول الواجبات التي تقع على عاتق الحزب الشيوعي ، وكل ضعف في تأثير العقلية الاشتراكية يعني تقوية تأثير العقلية البورجوازية . في المجتمع الاشتراكي لا توجد ولا يمكن أن توجد قاعدة اقتصادية ، قاعدة طبقية للعقلية البورجوازية . في الاتحاد السوفياتي ، تسود العقلية الاشتراكية . ومع ذلك فما تزال في المجتمع السوفياتي بقايا من العقلية البورجوازية . وهي لا تختفي من تلقاء نفسها . انها تبقى نشيطة بل تستطيع ان تتطور وتنمو في بعض الشروط .

ينبغي ان لا ننسى ابداً انه ما دام لنا جيران رأسماليون ، تبقى امكانية تغلغل المفاهيم الأجنبية والأفكار والأخلاق من الخارج

> « ... ومن الداخل ، من جانب بقايا الفئات المعادية للسلطة السوفياتية التي لم يستطع الحزب حتى الآن القضاء عليها . يجب ان لا ننسى ان اعداء الدولة السوفياتية يسعون إلى نشر وتشجيع وتسعير مختلف الميول الفاسدة ، والى تفسيخ العناصر المتقلقلة في مجتمعنا ، في الميدان الفكري »[1] .

---

(١) مالينكوف : التقرير المقدم إلى المؤتمر التاسع عشر للحزب حول نشاط اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (حزب البلشفيك) في الاتحاد السوفياتي . دار الطبع باللغات الأجنبية . موسكو ١٩٥٣ ص ١١٩ .

ان تطور الوعي يتأخر دائماً بالنسبة لتحول شروط الحياة المادية في المجتمع. وبقايا الرأسمالية، والمفاهيم العتيقة والافكار العتيقة والنظريات العتيقة تستمر في القاء وزرها ونشر ظلامها على وعي الناس حتى بعد اختفاء الشروط التي ولدت هذه الأفكار وهذه المفاهيم وتلك النظريات. وفي النظام الاشتراكي تبقى حتماً بقايا من الرأسمالية في وعي الناس، ومعايب من المجتمع القديم في الحياة اليومية، والاخلاق، والنفسية. انها تحافظ على نفسها بحكم العادة والتقاليد، ولكنها أحياناً تستعيد حيوتها بتأثير الصعوبات والنواقص والتناقضات في تطور المجتمع الاشتراكي.

ولهذا كان مهماً جداً تطوير واتقان الثقافة والعلم والأدب والفن الاشتراكي وتوجيه جميع وسائل العمل الفكري والسياسي، وكل الدعاية والتحريض الشيوعيين وكل الصحافة لاتقان التحضير الفكري لدى الملاكات في الحزب وخارج الحزب، ولأنماء اليقظة السياسية والوعي عند العمال والفلاحين والمثقفين.

ان النظرية الماركسية، اللينينية، هي سلاح جبار من أجل تكوين الوعي الاشتراكي عند الناس السوفياتيين. والعقلية الاشتراكية تطور عند الشغيلة فهماً واضحاً لتفوق النهج الاقتصادي الاشتراكي، لتفوق النظام الاشتراكي على النظام الرأسمالي.

والعمل الفكري للحزب الشيوعي يلعب دوراً رئيسياً في انقاذ وعي الناس من بقايا الرأسمالية والأوهام الجامدة والأساليب الرتيبة المؤذية في المجتمع القديم.

ان ضرورة تطوير التربية الشيوعية، ضرورة العمل الفكري، لا يستدعيها وجود بقايا المجتمع القديم في وعي الناس السوفياتيين

فحسب ، بل ان هذا العمل الفكري قد جعلته ضروريا المهمات الكبرى لبناء الشيوعية . ولكي تتم بنجاح مهمات بناء الشيوعية ، من الضروري رفع الوعي الشعبي إلى مستوى هذه المهمات . فالشيوعية إنما هي مجتمع يتطور فيه الناس تطوراً كاملاً ، مجتمع يصبح فيه العمل حاجة من الحاجات ، لذة من اللذات . ولأجل بلوغ هذا المستوى من التطور الاجتماعي ، ينبغي ان يقوم الحزب بعمل عظيم في تربية الجماهير في الميدان الفكري وفي الميدان الثقافي .

ان كل عمل الحزب ، ولا سيما العمل الفكري ، خاضع لهذا الهدف الاعلى : بناء المجتمع الشيوعي الذي يصبح فيه كل مواطن عضواً نشيطاً واعياً ، وصانعاً متعلماً ومثقفاً من صناع التطور الاجتماعي .

والقوة القادرة على خلق الاشتراكية والشيوعية ، إنما هي الجماهير الشعبية التي يقودها الحزب الشيوعي . وتعلمنا الماركسية ان الصانع الأساسي للتاريخ هو الشعب . ان عبادة الأشخاص ، شأنها شأن الانكار المجرد للصفة الموضوعية لقوانين التطور ، لا يمكن لها ان تكون إلا اداة من ادوات المغامرين . ومثل هذه المفاهيم تقود الى تصفية العلم الماركسي حول القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي وإلى تصفية المفهوم الماركسي القائل ان الشعب هو الخالق الأساسي للتاريخ وباني الشيوعية .

وعلى ماذا تقوم في الأساس العبادة المثالية للأشخاص ؟ انها تقوم على العبادة الباطلة « للرجال العظام » ، على نسبة صفات خارقة إليهم منها القدرة على القيام بمهمات لا يستطيع حلها إلا الحزب وحده ، ولا يقدر على حلها إلا طبقة اجتماعية تقدمية ، لا يقدر على حلها إلا الشعب . ان عبادة الاشخاص عند

الاشتراكيين الطوباويين وعند الشعبيين ، تقوم على ربط مصير الاشتراكية ، لا بنضال الطبقة العاملة ، ولا بمبادرة الجماهير الشعبية ، ولكن بمآثر بعض «الأبطال» وبعض المفكرين وبعض الشخصيات من النخبة . ان الاشتراكيين الطوباويين في أوروبا الغربية والشعبيين قد افلسوا. وقد قاد الحزب الشيوعي ومؤسسه لينين حملة لا هوادة فيها ضد النظرية المثالية القائلة بعبادة الأشخاص ، هذه النظرية المعادية للشيوعية عداء أصيلاً .

وكون الماركسية تعترف بأن الناس العظام يلعبون دوراً كبيراً في التاريخ بوصفهم قادة طبقة أو حزب، لا يمت بصلة مع عبادة الاشخاص. ان بعض الرفاق يختلط عليهم هذا الأمر، وهم في ذلك على ضلال مبين. ان الماركسية لا تنكر قط دور الشخصيات في التاريخ . فقد ابرز لينين بقوة بالغة دور ماركس وانجلس بصفتهما خالقي الماركسية ومؤسسي الأممية الأولى وزعيمي وقائدي الطبقة العاملة. كذلك حلل ستالين بعمق الدور الذي لعبه زعيم البروليتاريا العالمية ، لينين مؤسس الحزب الشيوعي والدولة السوفياتية، والمفكر العبقري الذي طور الماركسية بصورة خلاقة في عصر الاستعمار والثورات البروليتارية. ودور تلميذ لينين ومتمم عمله، ستالين، عظيم ايضاً. ولكن دور زعماء البروليتاريا مرتبط ارتباطاً وثيقاً بعمل الحزب الشيوعي والطبقة العاملة. وقوتهم قائمة على قوة الحزب الذي يربط الزعماء بالطبقة وبالجماهير الشعبية .

ان الحزب الشيوعي ، طوال تاريخه ، قد حقق قيادة جماعية للحركة العمالية وللنضال في سبيل الشيوعية. وعبادة الأشخاص تؤدي الى الاقلال من قيمة دور القيادة الجماعية ، من قيمة لجنة الحزب

المركزية. ان عبادة الاشخاص تنزع سلاح الحزب والطبقة العاملة إذ تمنعها من تعبئة المبادرات الخلاقة لدى الجماهير الشعبية. ولذلك كان القضاء على هذه العبادة والتغلب على كل أثر من آثار الذاتية في تفسير صفة القوانين الموضوعية لتطور المجتمع الاشتراكي هدفاً من الاهداف المباشرة الذي يرمي إليه عمل الحزب الفكري .

ان قوة الشعب كامنة في وحدته وتنظيمه، في وعيه الشيوعي، في فهمه الواضح للمهمات التي يضعها الحزب والدولة الاشتراكية. وقد اقام الشعب السوفياتي الدليل على درجة وعيه الرفيعة في سنوات التصنيع وإشاعة التعاون في الزراعة ، وخلال الحرب الوطنية العظمى، وفي مرحلة إعادة بناء الاقتصاد الذي دمره الغزاة. وهذا الوعي يتجلى اليوم في بناء الشيوعية. ولكن مهما كانت نجاحات التربية الشيوعية فإن المهمات الجديدة ماتزال تتطلب درجة اعلى من الوعي لدى الجماهير الشعبية كما تتطلب تقوية عمل الحزب الفكري .

ان الحزب الشيوعي والدولة الاشتراكية يربيان الشعب بروح الشيوعية، بفضل شبكة كاملة من المؤسسات الثقافية التي هي جزء من البناء الفوقي للمجتمع الاشتراكي: من مدارس ، ومكتبات ، واندية، ومسارح، ودور سينما، وصحافة واذاعة الخ.. ولهذا ما فتىء الحزب والدولة يعيران اهتماماً كبيراً إلى مسألة تطوير جميع وسائل الثقافة الاشتراكية، وإلى كل ما يتيح رفع المستوى الفكري لهذه المؤسسات، ويحسن محتوى عملها وصفته. ولأجل تطوير هذه التربية، يستخدم الحزب الشيوعي العلم والاخلاق والأدب والفن.

ان الأدب والفن يلعبان دوراً هاماً جداً في نشر الأفكار الاشتراكية والشيوعية ومبادىء الأخلاق الشيوعية وفي تكوين

العواطف عند اوسع الجماهير الشعبية . والحزب الشيوعي، الذي يدرك القوة التربوية التي يتمتع بها الأدب والفن، لا يكف عن النضال لكي يكون للأدب والفن محتوى فكري شيوعي ، لكي لا يكفا عن النضال ضد فقدان الأفكار وضد اللاسياسية في الأدب. وكلما ازداد الفن والأدب الاشتراكيان اكتمالاً من حيث محتواهما الفكري وشكلهما الفني ، وكلما عكسا الواقع بأمانة ، ازداد تأثيرهما على الجماهير .

ان التربية الشيوعية تشكل قوة كبرى عندما ترتبط بالحياة، عندما تتصل بالنشاط العملي. ولمساهمة الجماهير مساهمة نشيطة في بناء الشيوعية ، أهمية بالغة بالنسبة لتثقيف هذه الجماهير نفسها.

ان التعليم الشيوعي والتربية الشيوعية في جميع مراحل تطور النظام السوفياتي قد شملا القضايا السياسية والاقتصادية والثقافية. والتربية الشيوعية، في الميدان السياسي ، قد جعلت هدفها دائماً تثبيت دعائم النظام السياسي والاجتماعي السوفياتي، والديموقراطية الاشتراكية، واجتذاب الجماهير الشعبية إلى قيادة دولتها، وتعزيز الوحدة بين العمال والفلاحين والوحدة الاخلاقية والسياسية في المجتمع الاشتراكي ، والصداقة بين الشعوب ، وإنماء الوطنية السوفياتية والاخلاص للدولة والحزب الشيوعي ، ولقضية الشيوعية .

ان الدولة الاشتراكية قوية بوعي الجماهير وباخلاصها وبوطنيتها ونشاطها ومبادرتها الخلاقة. ويعبر الانتقاد والانتقاد الذاتي، ولا سيما الانتقاد الصادر من القاعدة، عن مبادرة الجماهير السياسية ، ويربيان في الشعب الشعور بأنه سيد بلاده . ولهذا يناضل الحزب في سبيل تطوير وتوسيع الانتقاد الصادر من القاعدة .

وفي الميدان الاقتصادي ، ينبغي ان تبعث التربية الناس على اتخاذ موقف شيوعي إزاء الملكية الاجتماعية وإزاء العمل ، وان تطور التقيد الواعي بالنظام. وفي هذا الميدان، تم احراز نجاحات كبرى. ولكن بناء الشيوعية يتطلب درجة رفيعة جداً من التربية:

١ ـ يجب أولاً أن تظهر الملكية الاشتراكية في أعين اعضاء المجتمع جميعاً كأنها القاعدة التي لا تتزعزع للمجتمع الجديد، أي ان تظهر كأنها مقدسة لا تمس ولا تنتهك حرمتها: فهكذا لا يمكن ان يكون هنالك من يبذر اموال الشعب. ينبغي على كل أمرىء أن يحرص على صيانة الملكية الاشتراكية وعلى تطويرها، لأن على هذا الأمر يتوقف وجود المجتمع الاشتراكي وتطوره ورفاهية جميع اعضائه .

٢ ـ ان غاية التربية الشيوعية في الميدان الاقتصادي ثانياً، إنما هي تحويل العمل، بنظر جميع اعضاء المجتمع الاشتراكي، إلى واجب مقدس وليس هذا وحسب؛ بل جعله أيضاً لذة، وفرحاً، والحاجة الحيوية الأولى. والدعاية والتحريض لا يكفيان أبداً للوصول إلى هذه الغاية. إنما ينبغي ايضاً تحويل شروط العمل الاشتراكي .

ومن اجل القضاء قضاء تاماً في وعي الناس على كل أثر من آثار موقفهم القديم من العمل الذي كانوا يعتبرونه عبئاً مضنياً ، كان ينبغي بادىء بدء إزالة الملكية الرأسمالية لوسائل الانتاج وإزالة الاستثمار ، ولأجل خلق المباراة الاشتراكية بالشكل الأرقى الذي بلغته اليوم ، لم يكن يكفي إزالة الرأسمالية والاستثمار ، بل كان ينبغي أيضاً خلق تكنيك جديد وملاكات جديدة من العمال الذين أصبحوا سادة التكنيك الأكثر تقدماً في الانتاج الاشتراكي .

ولأجل جعل العمل الحاجة الأولى من حاجات أعضاء المجتمع جميعاً،

ومصدراً للذة والسرور ،يجب المزيد من تطوير التكنيك وكهربة الاقتصاد برمته، وتسيير الانتاج كله على الآلات وبصورة آلية ، وبلوغ درجة من انتاجية العمل يصبح ممكناً معها تخفيض نهار العمل وتحسين شروط السكن إلى حد كبير ورفع الأجر الفعلي.

ان التدابير التي اتخذها الحزب تؤدي إلى هذا الهدف: تطوير الاساليب والوسائل التكنيكية وادخال المكتشفات العلمية الجديدة في الانتاج، واتخاذ التدابير الكفيلة بخلق غزارة في الخيرات المادية وبتأمين نهوض سريع في مستوى حياة الشعب . كل ذلك يشكل الشروط الضرورية لتحويل العمل الاشتراكي إلى عمل شيوعي ، الى حاجة حيوية أولى عند جميع أعضاء المجتمع .

ولذلك يجب ايضاً رفع المستوى الثقافي لدى جميع أعضاء المجتمع وتطوير جميع مؤهلاته الجسدية والفكرية تطويراً منسجماً. ولبلوغ هذا الأمر، ينبغي العمل في كل مكان على تطبيق التعليم الاجباري لعشر سنوات والتعليم البوليتكنيكي في المدرسة أي جعل كل انسان مالكاً مبادىء العلم والأساليب التكنيكية العصرية وفن تطبيق هذه المعرفة العلمية تطبيقاً عملياً. وفي ذلك مصدر من مصادر الامكانيات الهائلة للتقدم الاجتماعي ولتطور القوى المنتجة. ان رفع المستوى الثقافي لدى أعضاء المجتمع يؤثر تأثيراً ثورياً ليس فقط على انتاجية العمل ، بل ايضاً على صفة العمل نفسها، على تطور المبادرة اللاحق ، ويتيح التغلب على الفروق التي ما تزال قائمة بين العمل الفكري والعمل اليدوي .

ان الرأسمالية تقود إلى المزيد من استثمار الشغيلة على الدوام وإلى افقار حياة الانسان الفكرية. انها تقود إلى الحد من الثقافة وإلى

تطوير الجهل وتبليد اذهان الجماهير . والعلم والتكنيك في البلدان الرأسمالية موجهان ضد الطبقة العاملة ، ضد الجماهير الشعبية. أما في النظام الاشتراكي، فيوضع العلم والتكنيك وكل الاكتشافات الرائعة للعبقرية الانسانية ، في خدمة الشعب. انها تخفف عمله ، وتسهم في تطوير أعضاء المجتمع جميعاً تطوراً منسجماً .

ان تطور جميع أعضاء المجتمع تطوراً منسجماً لم يبق الآن حلماً من الاحلام ، ولا غاية بعيدة المنـال . فهذا الحلم هو في طريـق التطبيق العملي. ان الملايين من العمال والعاملات، والكولوخوزيين والكولوخوزيات، يأخذون الآن مبادرات في عملهم ويدرسون.

والمباراة الاشتراكية تتسع وتزداد عمقـاً ، وهي تتضمن في بذورها شروط ذلك التطور الجسدي والفكري المنسجم العتيد لدى جميع أعضاء المجتمع . ان المباراة الاشتراكية هي وسيلة من وسائل تحويل العمل إلى حاجة حيوية. وما ليس اليوم إلا جنينا للشيوعية المقبلة ، وينبغي ان يصبح وسوف يصبح بالضرورة صفة أساسية من صفات جميع الناس، وطريقة طبيعية من طرق سلوكهم وعادة من عاداتهم وسمة مميزة من سمات تفكيرهم. ان التوصل إلى تطوير هذا المفهوم عن الملكية الاجتماعية في وعي الشغيلة جميعاً لاعتبارها أمراً مقدساً لا تنتهك حرمته والأساس الراسخ للمجتمع ، الأساس لرفاهيـة الشعب ، وجعل العمل عند جميع الناس في المجتمع الاشتراكي الحاجة الأولى ولذة ، تلك هي أهم مهمـة موضوعية أمام الحزب الشيوعي والدولة السوفياتيـة في ميدان التربية الاقتصادية والثقافية لأعضاء المجتمع .

في العالم الآن معسكران : معسكر الاشتراكيـة ومعسكر الاستعمار. في بلدان المعسكر الاشتراكي، يتطور عمل خلاق سلمي

ويتقدم الناس نحو المستقبل بثقة ، وتتطور القوى المنتجة تطوراً جباراً ، وتزدهر الثقافة الاشتراكية .

أما في بلدان المعسكر الرأسمالي، فان القوى المنتجة تتعثر وتعيش بضنك وعناء ، ويشهد الناس إشاعة العسكرية في الاقتصاد، وكل انسان قلق من الغد .

وهنا خطان أو قانونان متضادان من التطور. وهذان القانونان المتضادان من التطور يتجليان في عقليتين متضادتين : العقلية البورجوازية والعقلية الاشتراكية .

ان العقلية البورجوازية يسودها شعور من القلق والشك والتشاؤم واليأس والحقد على التقدم وعلى كل ما هو تقدمي وثوري ديموقراطي وشعبي وانساني. انها عقلية معادية للانسانية تقوم بالدعاية لحروب اللصوصية وللعنف، وللظلامية، ولخيانة المصالح الوطنية.

أما العقلية الأخرى، العقلية الاشتراكية التي تسود الاتحاد السوفياتي وبلدان الديموقراطية الشعبية، والتي تجمع تحت رايتها الملايين والملايين من الشغيلة في البلدان الرأسمالية نفسها، فيسودها التفاؤل ، والثقة بانتصار الاشتراكية في العالم كله . والعقلية الاشتراكية تعبر عن المصالح الأساسية للجماهير الشعبية وللانسانية التقدمية جمعاء .

انها عقلية الصداقة والمساواة بين الشعوب ، عقلية السلام ، وهي عقلية مفعمة بروح ثورية عميقة .

ان النجاحات التي احرزها ملايين الناس السوفياتيين الذين خلقوا مجتمعاً اشتراكياً والذين يبنون الشيوعية الآن ، لم تكن ممكنة إلا لأن الحزب الشيوعي سار في طليعة الشعب معتمداً على القوانين الموضوعية التي يستخدمها عن وعي. وكل نشاط الحزب الشيوعي

في الاتحاد السوفياتي ، وكل الانتصارات التي تمت تحت قيادته الحكيمة المجيدة، إنما كانت نتيجة استعمال صحيح وواع للقوانين الموضوعية في التطور الاجتماعي .

ان البورجوازية ومفكريها وعلماءها الرجعيين ينكرون وجود القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي لأن هذه القوانين التي تقود الى خراب الرأسمالية المحتم تبعث الرعب والحقد في قلب البورجوازية . ولهذا تناهض البورجوازية الرجعية كل علم اجتماعي حقيقي ، وتفضل عليه اسلحة المثالية والصوفية والظلامية .

ولكن الحزب الشيوعي وكل الشعب السوفياتي يعترفان بوجود القوانين الموضوعية في التطور الاجتماعي ، وهذا يوافق تماماً واقع الحياة وحركة التاريخ . ان هذه القوانين تقود الى انتصار الشيوعية المحتم . والقوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي تبعث في قوى التقدم في العالم ثقة لا تغلب بانتصار الاشتراكية في العالم كله .

والعلم الذي يتيح لنا معرفة القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي إنما هو الماركسية — اللينينية .

وقوة الحزب الشيوعي في الاتحادي السوفياتي قائمة على معرفته العميقة العلم الماركسي وعلى تطوير هذا العلم تطويراً خلاقاً على أساس التجارب المكتسبة . وعلى ضوء النظرية الماركسية ـ اللينينية يشير الحزب الشيوعي الى الطريق التي يجب ان يسير فيها الشعب السوفياتي لكي يمضي قدماً نحو الشيوعية .

وقوة شعوب الاتحاد السوفياتي قائمة على امتلاكها افكار الشيوعية العظيمة . وهذه الافكار أصبحت قوة تقدم كبرى .

إن أفكار الاشتراكية والديموقراطية والسلام قد اكتسبت الآن مئات الملايين من الناس في جميع بلدان العالم .



توزيع في الاقطار العربية

دار دمشق : دمشق ـ شارع بور سعيد ـ هاتف ١١١٠١٢

طبع في لبنان

السعر ١٥٠ ق٠